

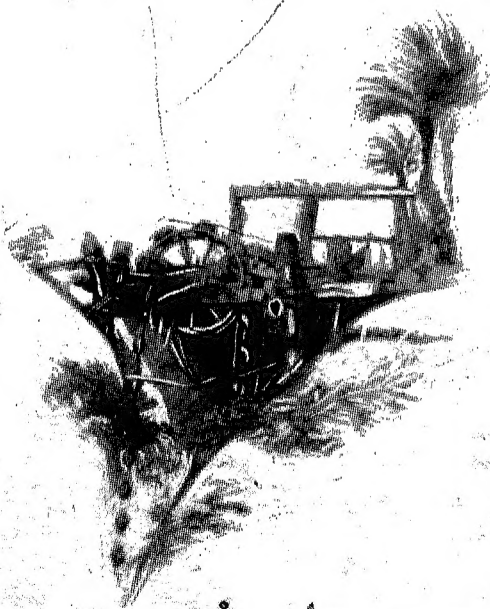


مركز وثائق
وتاريخ مصر المعاصر

٢٦

مصر

في كتابات الرحالة الفرنسيين
في القرنين السادس عشر والسابع عشر



إلهام محمد علي ذهني



Bibliotheca Alexandrina



0102084



مركز وثائق و تاريخ مصر المعاصر

إشراف: د. د. يونان لبيب رزق
سكرتير التحرير: خلف عبد العظيم الميرحي

الاخراج الفنى : اسامة سعيد

مصر

في كتابات الرحالة الفرنسيين
في القرنين السادس عشر والسابع عشر

تأليف

د. الهام محمد علي ذهني
كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر



الجمعية المصرية لدراسات التراث

١٩٩١

ذات رؤية أحادية في الغالب ، وهى رؤيتنا لأنفسنا ، بحكم أن جل من كتبوها كانوا من الباحثين المصريين ، وما قدمته الدكتوراه الهام ذهنى انما كان شكلا من أشكال الرؤية فى المرأة الأوروبية .

اعتبار آخر : أن هذا العمل قد تطلب الفوص فى الكتابات القديمة للرحالة الفرنسيين ، وهو فوص قد استلزم معرفة جيدة بلغة هؤلاء وبطبيعة العصر الذى وضعوا فيه كتاباتهم ، مما يتطلب مشاركة خاصة ، وهو ما نجحت المؤلفنة فى صنعه وتقديمه لقارىء مصر النهضة .

بالإضافة الى ذلك فان كتابات الرحالة الأوروبيين بما فيهم الفرنسيون كانت تتميز دائما بالرؤية الثاقبة لأحوال المجتمع المصرى بكل أبعاده ، وذلك بحكم ما كان يمثل هذه المجتمعات من عالم غريب عليهم ، يلفت نظرهم فيه أشياء كثيرة قد تبدو لابن هذا المجتمع أشياء طبيعية .

وبالتالى فقد دققوا فى وصف هذه الأشياء ومتابعة تفاصيلها ، ومن ثم تكتسب هذه الدراسة أهميتها فى مجال الرؤية الاجتماعية لمصر فى تلك القرون البعيدة .

يبقى أخيرا أن نتصور ونحن محققون فى هذا أن مجموعة العلماء الذين صاحبوا الحملة الفرنسية وعكفوا على وضع السفر العظيم تحت اسم « وصف مصر » لم يضعوا هذا العمل من فراغ وانما سبقهم اخوان لهم هم الذين أشارت اليهم صاحبة هذا المؤلف . .

وعلى ضوء كل هذه الاعتبارات تقدم هذا العمل لقراء « مصر النهضة » لعله يكون مصدرا فائدا ومتعة لهم .

وعلى الله قصد السبيل .

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

المقدمة

تتناول هذه الدراسة كتابات الرحالة الفرنسيين عن مصر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وقد حرصت فيها علىلقاء الضوء على الوضع السياسى فى مصر ، والعلاقة بين الدولة العثمانية وفرنسا خلال هذه الفترة لأن بعضا من هؤلاء الرحالة تم ايفادهم فى بعثات رسمية أو سفارات الى الدولة العثمانية ، كذلك حرصت على التعريف بشخصيات هؤلاء الرحالة فمنهم الطبيب والعالم ورجل الدين والجغرافى .

وقد التزمت فى هذه الدراسة بما ذكره الرحالة بالفعل من وصف ومشاهدات وأوردت المبالغات التى كتبوها .

وقد فضلت تخصيص هذه الدراسة لرحالة القرنين ١٦ ، ١٧ وذلك لتشابه كتابات هؤلاء الرحالة خلال هذه الفترة ، ولأن معظمهم اقتصرت زيارته على مدن مصر السفلى والمزارات المسيحية فقط ، أما رحالة القرن الثامن عشر فقد جابوا مدن

مصر خاصة الوجه القبلى وسجلوا مشاهداتهم بصورة أعمق وأكثر دقة ولذلك آثرت تخصيص دراسة خاصة بهم باذن الله .

ويمكننا القول ان علماء الحملة الفرنسية افادوا من كتابات هؤلاء الرحالة جميعا الذين توافدوا على مصر منذ مطلع القرن السادس عشر وحتى مجيء الحملة فى نهاية القرن الثامن عشر فكانت كتابات هؤلاء الرحالة هى المنارة التى ارشدت علماء الحملة فتعرفوا على مصر من خلال هذه الكتابات ثم تعمقت هذه المعرفة بصورة علمية دقيقة بعد وصولهم الى مصر مع الحملة الفرنسية فوصفوها وصفا علميا دقيقا شاملا .

وأخيرا لا يسعنى الا ان أقدم خالص الشكر والعرفان للأستاذ الدكتور يونان لبيب على ما بذله من اهتمام لهذا البحث ، كما أتوجه بالشكر الى سكرتير التحرير الأستاذ خلف عبد العظيم لحرصه الشديد على سرعة اتمام هذا العمل .

والله ولى التوفيق ؟

د. الهام ذهنى

الفصل الأول

علاقة فرنسا بمصر والدولة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر

أولا - أحوال مصر السياسية في القرن السادس عشر

علاقة قانصوه الغورى بفرنسا والقوى الأوربية

شهدت مصر في العقد الثانى من القرن السادس عشر تحولا خطيرا في تاريخها السياسى ، اذ قوض العثمانيون الأتراك حكم دولة المماليك وتحولت مصر الى ولاية عثمانية بعد ان كانت دولة عظيمة تمتد حدودها من مصر الى الشام والحجاز . كذلك شهدت الدولة العثمانية خلال هذا القرن اتصالات فرنسية مكثفة كان من نتائجها تحالف الدولتين ، ومساندة الدولة العثمانية المسلمة للملك الفالوا Valois الفرنسيين .

وقبل ان نتحدث عن تطور العلاقة بين فرنسا والدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر وانعكاس ذلك على مصر ، ينبغى لنا ان نلقى نظرة سريعة على العلاقة بين الأشرف قانصوه الغورى آخر سلاطين المماليك وفرنسا قبيل انهيار دولته .

تولى الغورى (١) حكم مصر في عام ١٥٠١ بعد فترة من

(١) تولى الغورى عدة مناصب هامة في عهد الأشرف قايتباى فعمل كاشفا في مصر العليا ثم نصب أميرا للجند ١٤٨٤ ، وعمل في حلب وحكم طرطوس وسيلسيا وعمل في خدمة الناصر بن قايتباى ١٤٨٨ وقاد الحروب مع العادل طومان باى الأول في دمشق .

الاضطرابات والتنافس على الحكم هذا وقد أفاض الرحالة الفرنسي جان تينو Jean Thénault الذي زار مصر في عهد الغورى في وصف الاضطرابات التي عانت منها مصر قبيل تولى الغورى من انعدام الأمن والتنافس بين الأمراء على الحكم الى أن استقر رأى المشايخ على تعيين الغورى سلطانا على مصر فنصبه مهام منصبه الخليفة المستمسك بالله والقضاء الأربع (٢) .

وقد أثبت الغورى أنه جدير بمنصبه رغم كبر سنه ، وتجاوز الستين عاما ، فقد عمل على إعادة الأمن والاستقرار الى البلاد ، واهتم بتحسين المدن الهامة مثل الاسكندرية ورشيد ، واهتم بتقوية قلعة صلاح الدين . ورغم جهوده فان مصر لم تنعم بالاستقرار طويلا بسبب تفاقم الخطر البرتغالى واحتكار البرتغال للتجارة الشرقية . ومهاجمتها للسفن الاسلامية في مياه المحيط الهندي والبحر الأحمر (٣) .

وقد شهدت مصر في عهد قالصوه الغورى العديد من السفارات والبعثات الاسلامية قصد أعضاءها بلاط الغورى لعدة أسباب فندها الرحالة الفرنسي « جان تينو » على النحو التالى :

١ - النشاط البرتغالى في مياه المحيط الهندي واحتكار البرتغال التجارة الشرقية ومنعها القوى الاسلامية من التجارة .

Thénault, Jean : Le voyage D'outremer (Egypte) (٢)

Mont Sinay Palestine) Paris 1884 pxi 1.

(٣) د. سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام القاهرة

١٩٦٩ ص ٣٣٣ .

٢ - معاناة مسلمى اسبانيا من المسيحيين واجبارهم على اعتناق المسيحية .

٣ - الحملات الأسبانية المتواصلة ضد مسلمى شمال افريقيا فكثرت سفارات البربر من تونس والمغرب الى القاهرة للاستنجاد بالفورى ضد اسبانيا ، وطالبوه باستبعاد التجار المسيحيين من الشرق (٤) .

وجدير بالذكر أن بلاط الفورى لم يشهد فقط بعثات اسلامية من المغرب أو الهند وإنما شهد أيضا بعثات وسفارات أوروبية بل اسبانية . ففي عام ١٥٠١ أرسل ملكا اسبانيا فرديناندو ايزابيلا بعثة الى مصر برئاسة بير مارثير دانجير Pierre Martyr D'Anghiera وصلت الى الاسكندرية حيث نزلت في ضيافة القنصل الفرنسى فيليب بيره Philippe Peretz ثم سافر دانجيرا الى القاهرة فوصلها في ١٦ يناير ١٥٠٢ هذا ويصف الرحالة الفرنسى « جان تينو » اللقاء بين الفورى ودانجيرا بأنه « كان لقاء عاصفا » توعد فيه الفورى حكام اسبانيا من جراء اضطهادهم للمسلمين ، وقشلت بعثة دانجيرا في عقد أية اتفاقيات تجارية مع الفورى وعلل تينو فشل البعثة بسبب « دسائس المغاربة واليهود » وغادر دانجيرا القاهرة في فبراير ١٥٠٢ (٥) .

ولم يتوقف الفورى باستقبال البعثات الأوروبية ، بل أرسل بدوره السفارات الى أوروبا ولعل أهم هذه السفارات التي

Thenaud : op. cit. P XLIV

(٤)

Ibid : P. XLIV

(٥)

أرسلها الى البابا جوليوس الثاني Julius II (٦) . ردا على مهاجمة السفن البرتغالية - لكالت مما ترتب عليه كساد التجارة في مصر والبندقية - فضلا عن مهاجمة داجاما ١٥٠٣ لسفينة هندية تحمل حجاجا هنودا جاءوا من ساحل الملبار لتأدية فريضة الحج ، ولذلك قرر الفوري تقديم شكوى الى البابا ضد ملكى اسبانيا والبرتغال (٧) . ولما كان البابا جوليوس الثاني سياسيا ماهرا فقد استقبل بعثة الفوري وان لم يستجب لمطالبها (٨) .

أرسل الفوري فرا مورو دي سان Fra Mauro Di San الى البابا في عام ١٥٠٤ - وكانت شكواه تلخص في الفظائع التي يرتكبها الأسبان في حق المسلمين والمغاربة - وأبلغ مبعوث الفوري البابا بتهديدات السلطان بالقضاء على المسيحيين في دولته ، غير أن البابا رفض التدخل رسميا بين الفوري واسبانيا، ولكن لخوفه في الوقت نفسه من تهديدات الفوري أمر « فرا مورو » باطلاع ملكى اسبانيا والبرتغال على تهديدات الفوري ويذكر « تينو » بأنه لم يطلع على رد ملك اسبانيا ، أما ملك البرتغال « ايمانويل » فقد أجاب البابا بقوله « أننى أنشوق لرؤية اليوم الذى تدمر فيه الكعبة وقبر محمد في

(٦) لعب البابا جوليوس الثاني (١٥٠٣ - ١٥١٣) دورا هاما في الحروب الايطالية فحاول لويس الثاني عشر عزله بسبب مؤاراته ضد فرنسا ولكن دعوته قوبلت بالاستنكار في أوروبا فقد أراد البابا أن يعيد للبابوية هيبتها بعد فترة حكم اسكندر السادس الذى اشتهر بمغامراته النسائية ولذلك لج بنفسه في المشكلات السياسية .

Thenaud : op. cit. P. LIV

(٧)

(٨) عبد العزيز نوار ، عبد الحميد البطريق : التاريخ الاوروبى من عصر النهضة الى أواخر القرن الثامن عشر القاهرة ١٩٨٢ ص ٧١ .

المدينة » وطالب إيمانويل البابا بتكوين حلف من الأمراء المسيحيين لمحاربة المسلمين . وقد أطلع فرا مورو كلا من البابا والفوري على رد ملك البرتغال . لذلك قرر الفوري اتخاذ عدة إجراءات ضد المسيحيين في بلاد الشام فما كان منه الا ان القى القبض على عدد كبير منهم وباعهم في أسواق الرقيق . وقد علل تينو هذه الخطوة من جانب الفوري بأنها « كانت لارهاب ملكى أسبانيا والبرتغال » (٩) .

وجدير بالذكر أن الفوري حاول التحالف مع البندقية ضد الخطر البرتغالي ، وكان من الطبيعي أن تتفق مصالح البنادقة مع الفوري لأن احتكار البرتغال للتجارة هدد مصالح البندقية فحاولت تحريض القوى الأوروبية ضد البرتغال ، ولكن الدول الأوروبية لم تقبل أن تتخلى عن التعامل مع البرتغال ، خاصة وانها قامت بتزويد الأسواق الأوروبية بالسلع الشرقية والبهار بأسعار تنافس أسعار البندقية مما أدى الى تدفق التجار الأوروبيين خاصة الألمان على لشبونة للحصول على التوابل (١٠) .

ولمواجهة الخطر البرتغالي قرر الفوري بناء عدد من السفن لحماية البحر الأحمر والحجاز من اعتداءات السفن البرتغالية فأرسل بعثة الى البندقية عام ١٥٠٧ ، اتفقت على شراء الأخشاب اللازمة لصناعة السفن ، فضلا عن حصولها على موافقة البنادقة على امداد الفوري بالمدافع (١١) .

Thenaud . op. cit. P. XLVI LX

(٩)

(١٠) د. سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٣٣٣ .

Clement, R : Le Français D'Egypte aux XVII et (١١)

XVIII siècles Le Caire 1960 PP. 1 — 2.

أما فرنسا فقد بدأت اتصالاتها بالفوري في عهد لويس الثاني عشر (١٢) الذي أراد الحصول على امتيازات تجارية من الفوري واتفق القنصل الفرنسي في مصر فيليب بيرييه مع الفوري على عقد معاهدة تجارية عام ١٥٠٧ تضمن حرية التجارة للفرنسيين في مصر ، وحق رسو سفنهم ، كما تضمن لهم حرية التجول في البلاد ، والبيع والشراء في المناطق التي يرغبون في الذهاب إليها ، وعدم جواز معاقبة واحد منهم بـدنب ارتكبه غيره أو الانتقام منهم فيما يفعله القراصنة وأن يتولى القنصل شؤون القضاء بين الفرنسيين وأن يكون له حق التجارة وأن يكون للفرنسيين الحق في ائتياد كنائسهم المعروفة في الاسكندرية (١٢) . غير ان اتفاق عام ١٥٠٧ م لم يكتب له التنفيذ وذلك لأن العلاقة تآزمت بين الطرفين فبينما كانت هناك خمس سفن فرنسية تقل بعض المغاربة وعائلاتهم من الاسكندرية الى المغرب ، وأثناء ابحار السفن الفرنسية اعترض طريقها فرسان رودس ، ولذلك أمر الفوري بالقاء القبض على القنصل الفرنسي فيليب بيرييه ، كما أمر ببيع بعض الفرنسيين في الاسكندرية في أسواق الرقيق ، وقد حاول بيرييه تهدئة الفوري وتبرئة الفرنسيين من التواطؤ مع فرسان رودس غير أن الفوري لم يقتنع (١٤) .

هذا وقد ازداد التوتر بين الفوري والأوروبيين بعد كارثة اغراق السفن المصرية التي تعاقد الفوري على شرائها من البندقية وكان عددها ٢٨ سفينة ، اذ هاجمها فرسان رودس

(١٢) لويس الثاني عشر (١٤٩٨ - ١٥١٥) من أسرة فالوا التي

حكمت من ١٢٢٨ حتى ١٥٨٩ .

Clement : Op. Cit., P. 2.

(١٣)

Thenaud : Op. Cit., PL XIII.

(١٤)

عام ١٥١٠ م ، واغرقوا عددا كبيرا منها واحرقوا ما تبقى ، فالمرى
العورى الفبض على جميع التجار الأجانب فى مصر وسوريا وصودرت
بنساعتهم . وفسلب محاولات الملك لويس الثانى عثر للتدخل
واصلاح الموقف المنردى ولخنة فتل ، فأرسل الى السلطان
بايزيد بعنه برناسه « مونب جوى » Montjoye مطالبيا
منه بالوساطة بينه وبين العورى ، ولم يكتف الملك لويس
الثانى عر بطلب وساطة الدولة العثمانية فحسب بل سعى
لاصلاح الموقف مره ثانية مع العورى فأرسل بعثة فى
عام ١٥١٢ م ، الى القاهرة برناسه « جيلبر شوفو »
Guilbert Chauveau (١٥) .

ولتسوية الموقف مع العورى ارسل لويس الثانى عشر
بعثته الشهيرة اليه برناسه أندريه لى روى André Le Roy
ولا يوجد وناق لهذه البعثة سوى ما ذكره الرحالة « تينو »
المصاحب لها فقد سافر بصحبة لى روى من فرنسا الى القدس
الى إيطاليا ومنها الى الاسكندرية ثم القاهرة ولما كان الغرض
الرئيسى لبعثته لى روى هو تحسين صورة الفرنسيين امام
العورى ، وتسوية العلاقات بين الدولتين ، فقد أكد لى روى
للعورى بأن فرنسا لا علافة لها بما اقترفه فرسان رودس من
جرم واغراقهم السفن المصرية ، لما طالب بالافراج عن القنصل
الفرنسى فيليب بيرييه والتجار الفرنسيين وقد احسن العورى
استقبال هذه البعثة وابدى استعدادده لم يد الصداقة الى
فرنسا مرة أخرى (١٦) .

وبمكننا القول أن الهدف الرئيسى من اتصالات لويس

Ibid : PL XLII.

(١٥)

Ibid :

(١٦)

الثاني عشر بالغوري هو تنشيط التجارة الفرنسية وذلك لأن فرنسا عانت منذ أواخر القرن الرابع عشر من الاضطرابات المالية ولذلك لم يكن الحل أمام الحكومة الفرنسية سوى التوسع التجاري في الشرق وان كانت سياسة الانفتاح التجاري على الشرق قد ظهرت بصورة أوضح منذ القرن السابع عشر (١٧) .

مصر ولاية عثمانية

انسمت العلاقة بين الدولة العثمانية والمماليك بالود تارة وبالتوتر تارة أخرى ، فعندما سقطت القسطنطينية احتفل السلطان اينال في القاهرة رسميا بهذا النصر ، على حين ان القلق قد سيطر على العثمانيين عندما استولى المماليك في عهد السلطان بارسباي عام ١٤٢٤ على جزيرة قبرص ، وفي عهد بايزيد الثاني حدث نزاع على الحدود بين الدولتين في أعالي الشام ، كذلك لجأ الأمير جم منافس بايزيد في الحكم الى مصر في عهد قايتباي فنشبت الحرب بين الطرفين عام ١٤٨٥ م ، وأغار العثمانيون على طرطوس الا أن قايتباي هزمهم وعقد معهم صلح عام ١٤٩١ م (١٨) .

وفي عهد السلطان الغوري اتجه العثمانيون بفتوحاتهم نحو الشرق ، بعد أن كانت هذه الفتوحات تتركز في البلقان ، وكان

The New Cambridge : Modern History 1493 — (١٧)
1520 Cammbridge 1961 Vol. 1 P. 313.

(١٨) محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ - ١٩١٤
القاهرة ١٩٨١ ص ١٠٨ .

الشرق محل اهتمام سليم أيام كان واليا في طرابزون فقد شغله الخطر الصفوى وامتداد المذهب النسيعى الى الأناضول الى حد نأى بعض الأمراء العثمانيين بهذا المذهب (١٩) ولذلك ركز سليم حروبه على محاربة الغزلباش فى الأناضول (٢٠) كذلك اتجه الى فارس وهزم الصفويين فى موقعة جالديران ٢٢ أغسطس عام ١٥١٤ م واستولى على تبريز (٢١) .

اسم العلافه بين سليم والغورى بالود أحيانا والوعيد أحيانا أخرى وكانت هناك مراسلات سرية بين السلطان سليم وخاير بك نائب الغورى فى الشام اتسمت بالصدافه . وقد حذر سيباى نائب دمتق الغورى وأطلعته على مراسلات خاير بك مع السلطان سليم ولكن الغورى لم يتخذ أى اجراء ضد خاير بك (٢٢) .

ثم توترت العلاقة بين الغورى وسليم بسبب التنافس على إمارة ذى القدر فى أعلى الشام وقيام سليم الأول بالاسنيلاء عليها ١٥١٥ م ، فأجار الغورى الفارين من سليم فرد عليه السلطان العثمانى باغلاق سوق الرقيق وكان مصدر قوة الممالك (٢٣) .

(١٩) الأمير ان شهنشاه ومراد ابنا الأمير أحمد شقيق السلطان سليم .
(٢٠) أصدر المفتى حمزة أفندى فتوى بوجوب قتل الشيعة لانهم خارجون على الدين .
(٢١) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية . القاهرة ١٩١٢ م ص ٧٥ .

(٢٢) أحمد فؤاد تولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له . القاهرة ١٩٧٦ م ص ١٠١ .
(٢٣) محمد أنيس : المرجع السابق ص ١١٠ .

وفي عام ١٥١٦ م توجهت القوات العثمانية نحو بلاد الشام فطلب الفوري من الخليفة العباسي أبي عبد الله المتوكل على الله الثالث وفضاه المذهب السني الأربعه الاستعداد لمصاحبته في سفره الى حلب ، وبينما كان الفوري يقوم بالاستعداد لمواجهة القوات العثمانية ارسل خاير بك نائب حلب رسالة الى الفوري يؤكد له فيها ان سليم ينوي محاربته الفرس (٢٤) ولكن الفوري تحرك من مصر الى الشام في ١٥ ربيع الآخر ٩٢٢ هـ (١٨ مايو ١٥١٦) بعد ان اتى عنه طومان باي ووصل السلطان الفوري الى حلب ودارت المراسلات بينه وبين سليم الذي حاول حذاعه واظهار حسن نواياه ولكن الفوري ادرك هدف سليم والتفت القوات العثمانية والملوكية في مرج دابق في ٢٤ أغسطس عام ١٥١٦ م . ودم ابن زنبيل الرمال وصفا للمعركة اوضح فيه مدى قوة الجيش العثماني « فلما اتضح النهار ركبوا كالبجر الزاخر فاذا صفوف العثمانية قد بانت صفا صفا بعد صف ، ارجا من الوصف والاعلام الملونة من اليسار واليمين وهم سائرون كالبجر السيل والمحيط المسال وفد ركبوا الصف من كل طرف » (٢٥) .

وكان النصر لحليف العثمانيين وقتل الفوري وبفضل خيانة نوابه جان بردى غزالي نائب حمص ، وخير بك نائب حلب سقطت المدن السورية (٢٦) فأسرع الأمراء في مصر باختيار طومان باي سلطانا خلفا للفوري ، ثم زحف سليم من بلاد الشام

(٢٤) أحمد متولى : المرجع السابق ص ١٢١ .
 (٢٥) ابن زنبيل الشيخ أحمد الرمال : آخره الماليك . تحقيق عبد المنعم مامر . القاهرة ١٩٦٢ م ص ٢٧ .
 (٢٦) محمد انيس : المرجع السابق ص ١١٠ .

الى مصر فوصل الصالحية في ١٦ يناير ١٥١٧ م ومنها الى بلبيس والخانكة ٢٠ يناير وفي ٢٢ يناير ١٥١٧ م التقى الجيشان المملوكي والعثماني في الريدانية . وسقط في المعركة الصدر الأعظم سنان باشا ، وهرب طومان باي الى طره بيثما دخل سليم القاهرة في ٢٦ يناير ١٥١٧ م التي اشتدت فيها المقاومة فقتل العثمانيون عددا كبيرا من المماليك وسكان المدينة ، كما أمر سليم باحراق المنازل التي تحصن بها المماليك ، وهرب طومان باي الى البهنسا في صعيد مصر ثم اتجه الى الاسكندرية ثم دارت بينه وبين العثمانيين عدة اشباكات أسفرت عن هزيمته وتفترقت قواته ، فهرب عند شيخ العرب حسن بن مرعي الذي سلمه الى السلطان سليم وتم اعدامه على باب زويلة وظلت جنته معلقة ثلاثة ايام ثم دفنت في حوش المدرسة التي بناها السلطان الفوري ، وولى السلطان سليم يونس باشا على مصر (٢٧) .

ويذكر ابن اياس عن مصر « أنه منذ عهد عمرو بن العاص رضى الله عنه لم يفتحها أحد من الملوك بعد عنوة سوى سليم شاد بن عثمان » (٢٨) . وأثنى ابن اياس على شجاعة طومان باي في القتال حتى أن سليم « أعجب به وأسيع بين الناس بأنه سوف يرسله الى مكة ولن يقتله » ثم يضيف « لم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان وأن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ، ولا علق رأس السلطان على باب زويلة ولم يعهد بمثل هذه الواقعة في الزمن القديم » (٢٩) .

(٢٧) أحمد متولى : المرجع السابق ص ٢١٧ - ص ٢٢٠ .

(٢٨) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، حققها محمد مصطفى

من ٩٢٢ هـ الى ٩٢٨ هـ - ١٥١٦ - ١٥٢٢ م ج ٥ القاهرة ١٩٦١ م ص ١٥٢ .

(٢٩) المرجع السابق ص ١٧٥ : ١٧٧ .

أما ابن زنبيل فيذكر عن طومان باي أنه « لم يظهر في حياته شيء من الأفعال الرديئة أبداً ، لا شرب خمر ولا زنا ولا فواحش أبداً ، كان قليل الشهامة لا يظهر شيئاً مما يفعله أهل التجبر والعنف ، وكان الغالب على حاله السكينة والوقار ، وكان غالباً على نفسه ، رزبنا في أحواله ، لين الكلمة ذا انخفاض ، كثير الرحمة والشفقة على كل أحد ، حتى أنه لما ظهرت منه هذه الفراسة والشجاعة في قتال السلطان سليم صار الناس بتعجبون منه غابة التعجب ولم يكن أحد يظن أنه بهذه الصفة » (٣٠) .

وبعد مقتل طومان باي مكث سليم حوالى شهر في القاهرة زار آثارها ومساجدها ووزع العطايا وحضر الاحتفالات خاصة احتفال فتح الخليج الناصرى ثم حضر احتفال المحمل الشريف وأرسل الصرة الى الحجاز وأثناء وجوده في مصر سلم له شريف مكة مفاتيح الحرمين (٣١) .

هذا وإذا كنا في مقام الحديث عن ما ذكره المؤرخون عن شجاعة طومان باي فإنه لا يفوتنا أن نعرض ما ذكره عنه الرحالة الفرنسى تيفيه Thevet الذى قدم وصفاً دقيقاً لطومان باي أثناء اتياده الى الممنقة فذكر « أنه كان هادئاً رأسه مرفوعة ، صعد الى منصة الاعداء بخطى ثابتة ، وبموته فقدت مصر رجالاً من خيرة رجالها » (٣٢) .

(٣٠) ابن زنبيل : المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٣١) على حسنة : تاريخ الدولة العثمانية - دمشق ١٩٨٢ م

Andre Thevet : Voyages en Egypte-Cosmographie (٣٢)
du Roi Le Caire 1984 P. 35.

ثانيا - الاتصالات الفرنسية العثمانية في القرن السادس عشر

اتصالات أسرة الفالوا بسليمان القانوني وخلفائه

حكمت أسرة الفالوا فرنسا من عام ١٣٢٨ حتى ١٥٨٩ م (٢٣) ، وقد انشغلت هذه الأسرة لفترة طويلة من حكمها بالحروب الإيطالية التي بدأت منذ عام ١٤٩٤ م وانتهت ١٥٥٩ م .
أى أن هذه الحروب استغرقت خمسة وستين عاما ، وكانت مظهرا من مظاهر التنافس الدولي بين فرنسا وإسبانيا من أجل السيطرة على أوروبا ، وكانت إيطاليا هي الميدان الرئيسى للصراع بين الدولتين (٢٤) .

ويمكن تقسيم فترة الحروب الإيطالية الى مرحلتين متميزتين المرحلة الأولى بدأت من عام ١٤٩٤ الى عام ١٥١٥ م وتميزت هذه المرحلة بالحملات العسكرية الفرنسية على إيطاليا خاصة في عهد كل من شارل الثامن ولويس الثانى عشر ،
أما المرحلة الثانية فبدأت من عام ١٥١٥ م وانتهت عام ١٥٥٩ م بتوقيع صلح كاتو كمبرسيس الذى أنهى الحروب الإيطالية ،

(٢٣) انتقل الحكم بعد ذلك الى أسرة البوربون .

(٢٤) عبد العزيز الششاوى : أوروبا في مطلع العصور الحديثة طبعة

القاهرة ١٩٧٥ ج ١ ص ١٧٠ .

وامتازت هذه المرحلة بالصراع بين أسرة الغالوا وأسرة الهابسبورج خاصة عندما انتخب شارل الأول ملك أسبانيا امبراطورا للدولة الرومانية المقدسة ١٥١٩ م ولقب بشارل الخامس . Charles Quint. (٣٥) .

والذى يهمننا من هذه الحروب هو تأثيرها على الاتصالات الفرنسية العثمانية ؛ فقد انتهجت فرنسا سياسة جديدة غريبة على المجتمع الأوروبي في تلك الفترة الا وهى الاتصال بل والتعاون مع الدولة العثمانية المسلمة وعقد الاتفاقات معها وذلك لئلازرتها في حروبها ضد أسبانيا ، بالإضافة الى رغبتها في حصول رعاياها على امتيازات في الشرق خاصة بعد أن توسعت الدولة العثمانية وسيطت سيطرتها على البحر المتوسط وأصبحت تمثل قوة عسكرية كبيرة في القرن السادس عشر (٣٦) .

تبدأ المرحلة الأولى من الحروب الإيطالية ١٤٩٤ - ١٥١٥ م بغزو شارل الثامن لاطاليا ، وقد نجح في بداية الأمر في اقناع البابا وحكام جنوه والبندقية بأن الغرض الرئيسى من حملته العسكرية أن تكون ايطاليا مركزا لعملياته العسكرية ولمشروعه الصليبي الكبير الا وهو الزحف على البلقان ثم الاستيلاء على القسطنطينية وبلاد الشام وبيت المقدس وأكد لهم ثقته في تحقيق مشروعه الكبير وتكوين دولة صليبية في المشرق الاسلامى (٣٧) .

ولكن سرعان ما أدركت القوى الأوروبية والبابا أن هدف شارل الثامن هو بسط سيطرته على ايطاليا بالفعل ، فتكونت

(٣٥) المرجع السابق : ص ١٧٤ - ص ١٧٧ .
Clement : Op. Cit., P. 4.

(٣٦)

(٣٧) محمد فريد : المرجع السابق ص ٧٠ .

الأحلاف ضده لمنع من تنفيذ مخططه (٣٨) ولكن شارل الثامن تمكن من احتلال جنوه وفلورنسا وبيزا ودخل روما ١٤٩٤ مدعيا حقه في وراثة عرش نابولي وميلان (٣٩) .

والذى يهمننا من هذا الصراع هو الاتصالات التى دارت بين الأمير جم (٤٠) شقيق السلطان بايزيد الثانى (٤١) والبابا اسكندر السادس لمساعدته فى تولي الحكم بدلا من أخيه ولكن البابا بعد أن زحفت قوات شارل الثامن على ايطاليا فضل مهادنة بايزيد فأرسل اليه بطلعه على مشروع ملك فرنسا طالبا منه المساعدة وارسال القوات الى ايطاليا (٤٢) وبدخول شارل الثامن روما سلم البابا جم الى القوات الفرنسية بناء على طلبهم ، وذلك لأن شارل الثامن اعتقد أنه يمكنه الاستفادة منه فى حملاته وقد صاحب جم القوات الفرنسية ولكنه ما لبث ان توفي فى ١٤٩٥ وقيل ان البابا دس له السم (٤٣) .

وجدير بالذكر أنه رغم غزوات شارل الثامن لاطاليا الا أنه

(٣٨) زينب راشد : تاريخ أوروبا الحديث . القاهرة ١٩٨٦ ج - ١

ص ٣٠٤ .

(٣٩) المرجع السابق ص ٣٠٤ .

(٤٠) نافس جم أخيه بايزيد لثاني على الحكم وقد نجح الأخير فى احراق الهزيمة به فى يكي شهر ١٤٨١ ففر من البلاد وأقام فترة فى مصر لدى السلطان قايتباى ثم أقام فى رودس - واتصل بالبابا اسكندر السادس فى روما ، على أمل أن ساعده ضد أخيه . وعندما دخلت القوات الفرنسية روما سلم البابا جم الى شارل الثامن .

(٤١) تولى بايزيد الثانى ١٤٨١ - ١٥١٢ وقد عرف بايزيد الصوفى

لكثرة المسألة وميله الى السلم وحمه للعلوم .

(٤٢) محمد فريد : المرجع السابق ص ٧١ .

(٤٣) المرجع السابق ص ٧٢ .

اضطرر للانسحاب من البلاد وتوفي عام ١٤٩٨ دون أن يحقق أبة مكاسب لبلاده . تم تولى الحكم ابن عمه لويس الثاني عشر (١٤٩٨ - ١٥١٥) وفي عهده تجددت الحروب الانطالبية ونجحت فرنسا في السيطرة على شمال ايطاليا . وقد تميزت هذه الفترة بالنزاع بين لويس الثاني عشر والبابا جوليس الثاني خاصة وأن ملك فرنسا أراد تنحية البابا عن منصبه وتقوية نفوذ الكنيسة الفرنسية ولذلك وصفه معاصروه بأنه « جلب العار للكنيسة » (٤٤) .

وقد تميزت هذه الفترة بانصالات لويس الثاني عشر مع الغورى ومحاولته تقوية الصلات التجارية بين فرنسا ومصر فأرسل البعثات الى المماليك كما ذكرنا من قبل (٤٥) .

وبتوقيع صلح ١٥١٤ انتهت المرحلة الأولى من الحروب الايطالية وفشلت فرنسا في احراز أى توسع اقليمى فى ايطاليا (٤٦) .

وتبدأ المرحلة الثانية من الحروب الايطالية من عام ١٥١٥ حتى ١٥٥٩ م وتمتاز هذه الفترة بالانصالات المكثفة بين فرنسا والدولة العثمانية خاصة فى عهد فرانسوا الأول (١٥١٥ - ١٥٤٧) وهنرى الثاني (١٥٤٧ - ١٥٥٩) .

Cambridge : Op Cit., PP. 80 — 84.

(٤٤)

Clement : Op. Cit., P. 5.

(٤٥)

(٤٦) بمقتضى صلح ١٥١٤ تزوج لويس الثاني عشر الاميرة مارى شقيقة ملك انجلترا هنرى الثامن - فشلت فرنسا فى بسط سيطرتها على ايطاليا بينما نالت ايبانيا مواقع هامة فى نابولى وناغار واقتسمت ميلان مع السويسريين وظفر البابا بالسيطرة على فلورنسيا .

لقد تجددت الحروب الإيطالية في عهد فرانسوا الأول ،
الذي نجح في تحقيق الانتصارات على التحالف الذي تكون من
الامبراطورية الرومانية المقدسة والبابوية وإسبانيا وانتصر على
قواتهم في معركة مارينيان عام ١٥١٥ واستولى على ميلان ،
ولكن التنافس اشتد بينه وبين ملك إسبانيا خاصة بعد وفاة
ماكسميليان امبراطور الدولة الرومانية المقدسة عام ١٥١٩ اقترح
فرانسوا الأول نفسه لهذا المنصب كذلك شارل الأول ملك
إسبانيا الذي تم انتخابه امبراطورا باسم شارل الخامس (٤٧) .

ولما كان فرانسوا الأول يؤمن أن تحقيق مجد أسرة الفالوا
لن يتحقق الا باحراز الانتصارات على الهابسبورج كان من الطبيعي
أن يشتد النزاع بينه وبين شارل الخامس (٤٨) ولذلك بدأ
اتصالاته مع الدولة العثمانية لمساندته ضد عدوه كذلك قام بغزو
إيطاليا عام ١٥٢٤ م ولكنه وقع أسيرا في معركة بافي ١٥٢٥ (٤٩) .

والواقع أن الاتصالات بين فرانسوا الأول وسليمان ازدادت
خلال فترة أسره بل أن زوجته لويز أرسلت سفيرا الى استانبول
لطلب النجدة من الدولة العثمانية . ولكنه لم يتمكن من اكمال
رحلته اذ القى القبض عليه في البوسنة وقتل (٥٠) . فأرسل
فرانسوا سفيرا آخر هو جان فرنجيانى ١٥٢٥ الى استانبول
طالباً من السلطان أن يهاجم ملك المجر أحد حلفاء شارل الخامس
حتى يمنعه من تقديم المساعدة له . وقد أحسن سليمان استقبال

-
- (٤٧) عبد الرحيم عبد الرحمن : التاريخ الاوروبى الحديث والمعاصر .
دار الكتاب الجامعى ص ٧١ .
(٤٨) زينب راشد : المرجع السابق ج ١ ص ١٠٢ .
(٤٩) المرجع السابق ص ١٠٢ .
(٥٠) محمد فريد : المرجع السابق ص ٨٤ .

السفير الفرنسي (٥١) في ٦ ديسمبر ١٥٢٥ وأجزل له العطاء ووعده بمحاربة المجر (٥٢) . هذا وقد قدم سليمان القانوني المساعدات القيمة لفرنسا أثناء أسر ملكها مما أغضب الدول الأوروبية واعتبرت الاتصالات الجارية بين فرنسا والدولة العثمانية « وصمة عار في جبين فرنسا » لأنها اتصلت بالمسلمين ، ولذلك كان شارل الخامس حريصا على اجتذاب الدول الأوروبية في صفه خاصة بريطانيا والتنديد « بموقف فرنسا المزرى » (٥٣) وأكد أنه سيعمل على أعداد حملة صليبية جديدة للقضاء على الدولة العثمانية (٥٤) .

وقد اطلق سراح فرانسوا الأول بعد إجباره على توقيع معاهدة مدريد ١٥٢٦ التي تنازل فيها عن ادعاءاته في ميلان وجنوه ونابولي وفلاندر وارتو (٥٥) ونظرا للمساعدات القيمة التي قدمها سليمان القانوني لفرنسا أثناء أسر ملكها ، قيل ان فرانسوا الأول كان بنوى زيارة استانبول لتقديم الشكر الى

(٥١) أرسل سليمان رسالة الى فرانسوا الاول يعده بالمساعدة « أعلمنا ان عدوكم استولى على بلادكم وانكم الآن محسوسون وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم ، وكل ما قلتموه عرض على أعتاب سرير سدنا الملوكائية وأحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل فصار بتمامه معلوما فلا عجب من حبس الملوك وحبسهم فكن منشرح المصدر ولا تكن مشغول الخاطر » محمد فريد من ٨٥ .

(٥٢) المرجع السابق ص ٨٤ ، ٨٥ .
 Gran, J : A history of Europe 1949 — 1610 London (٥٣)
 19 PP. 213 — 216.

(٥٤) الشناوي : المرجع السابق ج ١ ص ٢٩١ .
 (٥٥) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٧٤ .

السلطان العثماني ولكنه أحجم عن تنفيذ هذه الزيارة خوفا من رد الفعل الأوروبي (٥٦) .

استمرت الاتصالات بين فرانسوا الأول وسليمان القانوني بعد اطلاق سراحه خاصة ون الدولة العثمانية أصبحت تسيطر على البحر المتوسط . وفي ١٥٢٨ جددت فرنسا الامتيازات التي حصلت عليها في عام ١٥٠٧ من الفوري في عهد لويس الثاني عشر ولم يتم تطبيقها . وحقق معاهدة ١٥٢٨ الأمن للتجار والرعايا الفرنسيين مع التعهد بعدم النعرض لكنائسهم وعدم فرض ضرائب عقارية عليهم وعدم عرقلة النشاط التجاري لسفنهم في موانئ مصر والنم و أوضح انفاق ١٥٢٨ مدى فوه العلاقة بين الدولتين خلال هذه الفترة وينسحب ذلك على العلاقات السياسية والتجارية معا (٥٧) .

واستمرت الاتصالات السياسية بين الدولتين خاصة بعد ان تمكن سليمان القانوني من هزيمه ملك المجر في معركة موهاكس ١٥٢٩ فرسخت فرنسا حنا زابوليا من أسرة مجرية فوافق السلطان العثماني على هذا الترسيع وفي الوقت نفسه رشع امبراطور الدولة الرومانية أخاه فرديناند ملكا على المجر وقسمت المجر الى ثلاثة اقسام قسم تابع للدولة العثمانية وآخر لحنا زابوليا والثالث لفرديناند ملك النمسا وترجع أهمية هذه المعركة بالنسبة لفرنسا الى انها أرادت مهاجمة حلفاء شارل الخامس في المجر والتي مثلت آخر حاجز يحول بين الدولة

Dyer, Arthur Hassall :Modern Europe 1525 — 1585 (٥٦)

London 1901 Vol. II P. 102.

Clement : Op. Cit., P. 2.

(٥٧)

العثمانية ووسط أوروبا فاتفقت مصلحة الدولتين على احكام السيطرة العثمانية على المجر (٥٨) .

ورغم توقيع صلح كابرى ١٥٢٩ بين فرنسا والدولة الرومانية المقدسة وانتقل السيادة في شبه الجزيرة الإيطالية الى شارل الخامس ، الا أن الحروب سرعان ما اندلعت مرة ثانية بين الدولتين (٥٩) وارسل فرانسوا الأول السفير الفرنسي رنسون الى استانبول فأحسن سليمان القانوني استقباله باحتفال لم يسبق لسفير غيره ووعده بمحاربة شارل الخامس وامداد فرنسا بكل ما تحتاج اليه من سمن وعتاد (٦٠) .

وقد تجدد الصراع من جديد بين الدولتين من اجل إيطاليا عندما خلا عرش ميلان فطمعت كل منهما في الحصول عليه وارسل فرانسوا الأول بعثته لافوريه De La Forest الى استانبول ، وبم الاتفاق على تقديم المساعدة لفرنسا اثناء غزو فرانسوا الأول لإيطاليا فتقوم قواته بغزو شمال إيطاليا ويتجه منها نحو لمبارديا - في الوقت نفسه تقوم القوات العثمانية بغزو جنوب إيطاليا (٦١) . ولم تناقش بعثة لافوريه الأمور السياسية فحسب وإنما وقعت البعثة اتفاقا هاما منح فيه رعايا وتجار فرنسا العديد من الامتيازات التي شملت حق النجول والاتجار وأجازت المبادلات الاقتصادية دون ضرائب وصار للقنصل الفرنسي في استانبول والاسكندرية حق التحاكم ، وأصبح لا يحق للقضاة العثمانيين الحكم على رعايا وتجار فرنسا

(٥٨) الشناوى : المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٣ .

(٥٩) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٧٤ .

(٦٠) مدد فريد : المرجع السابق ص ٨٨ .

Dyer : Op Cit., PP 130 — 131.

(٦١)

بناء على سكاوى الأهالى الا فى حضور الصدر الأعظم ، كذلك منع حمز الأسرى بصفة رفيق ، وحق السفن الفرنسية فى الرسو فى الموانى . ولا يجوز تفتيشها الا فى أماكن معينة (١٢) وكان هذا الاتفاق أكثر نمولا (١٣) من اتفاق ١٥٢٨ وقد جدد ١٥٦٩ و ١٥٨١ - ١٥٩٧ - ١٦٢٤ - ١٧٣٩ (١٤) .

وقد نفذ سليمان القانونى تعهده لفرانسوا الأول فأرسل القائد البحرى بربروسا على ظهر مائة سفينة للالتحاق بقوات الأدميرال بلانكار Blancard لدخول ريفولى (١٥) . ولكن البابا بول الثانى أراد إيقاف النزاع بين الطرفين عام ١٥٣٨ (١٦) .

وفى عام ١٥٤١ استأنف فرانسوا الأول الحرب ضد شارل الخامس فأرسل الميسو رنسون الى استانبول ليتفق مع سليمان على الترتيبات النهائية للتحالف بين الدولتين الا أن المبعوث الفرنسى قتل فى ميلان بإيعاز من شارل الخامس ، الذى أراد قتله لعله يجد رسائل معه من فرانسوا الأول يوجد بها ما يمس الدين المسيحى فينتهرها بين ملوك وأمرأء أوروبا ضده ولكنه لم يجد شيئاً (١٧) . وحل الميسو بولان محل رنسون كسفير فى استانبول وطلب المساعدة من سليمان فوعده بإرسال خير الدين الذى رافق بولان الى مارسيليا ونيس فحاصرها عام ١٥٤٣ وقام خير الدين

(١٢) على حوثة : المرجع السابق ص ٦٨ .

(١٣) يمكن مراجعة معاهدة الامتيازات فى محمد فريد : الدولة العلية .

(١٤) الشاوى : العولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها القامرة

١٩٨٠ ج ١ ص ٧٨ .

Dyer : Op. Cit., P. 181.

(١٥)

(١٦) ميد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٧٥ .

(١٧) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٠٠ .

بالعديد من العمليات العسكرية في ساحل كالابريا في ايطاليا كما اشتركت قواته مع القوات الفرنسية في مهاجمة المدن الايطالية وفي عام ١٥٤٤ وقع فرانسوا الأول معاهدة كرسبي مع شارل الخامس فعاد خير الدين الى استانبول (٦٨) .

وفي عام ١٥٤٧ أرسل فرانسوا الأول السفير الفرنسي درامون D'Aramont لتجديد علاقات الود والصداقة مع الدولة العثمانية ، وهى الرحلة الشهيرة التى سجلها الرحالة الفرنسيون (٦٩) .

هذا وقد توفى فرانسوا الأول عام ١٥٤٧ م وخلفه ابنه هنرى الثانى (١٥٤٧ - ١٥٥٩) الذى عمل على ائارة البروتستنت ضد شارل الخامس وهاجم الحدود الألمانية عام ١٥٥٢ واستولى على فردان ومنز وفنل الامبراطور شارل الخامس فى انتزاع متمر منه واضطر للتنازل عن العرش لأخيه فرديناند ليخلفه على العرش الامبراطورية الرومانية فى النمسا والمانيا بينما تولى ابنه فيليب عرش اسبانيا والأراضى المنخفضة والممتلكات الأسبانية فى العالم الجديد عام ١٥٥٥ (٧٠) .

وقد واصل فيليب الثانى ملك اسبانيا الحرب فى ايطاليا ونجح فى الحاق الهزيمة بفرنسا عام ١٥٥٧ م واصبح الطريق مفتوحا الى باريس خاصة بعد هزيمة سانت كونتان . ولكن سرعان ما عقد صلح أو معاهدة كاتو كمبريسيس عام ١٥٥٩ م بين اسبانيا وفرنسا بعد حرب طويلة انتهت بتنازل فرنسا عن ميلان

(٦٨) نوار : المرجع السابق ص ٨٠ .

(٦٩) انظر الفصل الثانى .

(٧٠) زينب راشد : المرجع السابق ص ١٠٣ .

ونابولي لأسبانيا وسافوي وييدمنت واحتفظت فرنسا بالأسقفيات
الثلاث متر - تول - فردان - وتزوج فيليب الثاني ملك أسبانيا
بالأميرة اليزابيث ابنة هنري الثاني ملك فرنسا - وانتهت هذه
المعاهدة المنازعات الطويلة بين أسرتي الفالوا والهابسبورج والتي
كانت إيطاليا مسرحا لها (٧١) .

وجدير بالذكر أن هنري الثاني احتفظ بصلات والده
الوطيدة مع الدولة العثمانية فأبقى ديامون سفيرا لفرنسا في
استانبول . كذلك حذى حذو والده بالتحالف مع سليمان
القانوني أثناء حربه ضد شارل الخامس فعقد معاهدة في أول
فبراير عام ١٥٥٣ نصت على تعهد سليمان القانوني بإرسال السفن
البحرية الى هنري الثاني لمساعدته ضد شارل الخامس في خلال
أربعة أشهر ويمكن لسليمان القانوني أن يستولى على ممتلكات
شارل الخامس وبالفعل ساهمت القوات العثمانية في الحرب الدائرة
بين فرنسا وشارل الخامس فقامت السفن العثمانية بهجمات
على ساحل كلابريا » وكانت هذه آخر دفعة حارب فيها العثمانيون
والفرنساويون كتفا لكتف لتغير الظروف والأحوال حتى أتت حرب
القرم » (٧٢) .

وبعد وفاة سليمان القانوني تولى ابنه سليم الثاني
(١٥٦٦ - ١٥٧٤) فوطد صلاته بفرنسا وأرسل المبعوثين الى
ملك فرنسا يخبره بتوليته شئون الحكم .
كذلك تجددت الامتيازات التي منحت للفرنسيين من قبل
وقد جددت في عهد شارل التاسع (٧٢) .

(٧١) نواد : المرجع السابق ص ٨٠ ، ٨٤ .

(٧٢) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٠٤ .

De Hamner, J. : L'Empire Ottoman. Paris 19 (٧٣)

وعلى الرغم من استمرار العلاقات الوطيدة بين الدولة العثمانية وفرنسا إلا أنه عندما انهزمت الدولة في معركة ليبانتو عام ١٥٧١ وتحطم أسطولها لم تتحرك فرنسا لتقديم يد المساعدة لها ولم يحصل العثمانيون من الفرنسيين سوى على « التمنيات القلبية الطيبة » ضد التحالف المقدس الذي اقيم ضدهم (٧٤) .

وفي عهد مرادخان الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٦) تجددت معاهدة الامتيازات مع فرنسا عام ١٥٨١ وأجبرت السفن الأجنبية على حمل الاعلام الفرنسية فيما عدا سفن البندقية (٧٥) غير أن بريطانيا مع آواخر القرن السادس عشر بدأت هي الأخرى تحصل على امتيازات لتجارها في أملاك الدولة العثمانية فعد تأسست عام ١٥٨١ شركة الليفانت البريطانية للتجارة والتي كانت تتولى ترشيح السفراء البريطانيين في استانبول وتدفع لهم الرواتب وظل هذا التقليد ساريا حتى عام ١٥٨٣ وهو تاريخ تنفيذ الامتيازات (٧٦) .

ونظرا لتحسن العلاقات السياسية بين فرنسا والدولة العثمانية توافد الرحالة الفرنسيون على مصر ولكن البعض منهم لم يرحب بالتقارب الفرنسي العثماني خاصة جريهان افاجار - وكان من رجال الدين - فقد فضل شن الحملات الصليبية على الدولة العثمانية بدلا من التحالف معها واستنكر تورط فرنسا في الحروب الايطالية وكتب بعد عودته من مصر قائلا « أنه من الأفضل لفرنسا أن تسعى للاستيلاء على مصر بدلا من سسديها

Eyer : Op. Cit., Tome II P. 343

(٧٤)

Clement : Op. Cit., P. 4.

(٧٥)

(٧٦) الشناوى : المرجع السابق الدولة العثمانية ج ٢ ص ٧١٢ .

للحصول على دوقية ميلان ويجب الا يتورط المسيحي في قتال
اخيه المسيحي كما حدث في ايطاليا ومن الأفضل توجيه جهود
فرنسا للاستيلاء على مصر ، والتي يمكن الاستيلاء عليها
بسهولة » (٧٧) .

ثالثا - العلاقات الفرنسية العثمانية في القرن السابع عشر :

تميز القرن السابع عشر باتجاه فرنسا نحو الشرق وحرصها
على كشف أسرارها وارسال البعثات التبشيرية ، وتقوية الصلات
التجارية لفتح أسواق جديدة . ولعب وزراء فرنسا دورا كبيرا
لتحقيق هذه السياسة ففي عام ١٦٢٦ م أصبح الوزير ريشيليو
رئيسا أعلى للبحرية والتجارة وأسس ١٦٣٨ شركة فرنسا
الجديدة في العالم الجديد ولم يكتف ريشيليو بتوجيه اهتمامه
للتجارة وإنما حرص على اعلاء شأن أسرة البوربون في أوروبا
واضعاف نفوذ أسرة الهابسبورج القوية وقد حدا مزران حدوه
وحرص على رفع مكانة الملك لويس الرابع عشر في أوروبا - وأدرك
وزراء فرنسا أن تفوقها التجاري سيتبعه بالضرورة تفوقها
السياسي (٧٨) .

ورغم ما بذله ريشيليو ومزران لتنمية التجارة وفتح أسواق
جديدة إلا أن الاهتمام الحقيقي بالتجارة كان في عهد الوزير
كولبير Colbert الذي بدأ سلسلة من الإصلاحات الاقتصادية
أثناء الستينيات من القرن السابع عشر ، فاهتم بتنشيط الصناعة
والتجارة وأنشئت العديد من الشركات التجارية في حوض البلطيق

Clement : Op. Cit., P. 5 --- 6.

(٧٧)

(٧٨) زينب راشد : المرجع السابق ص ١٧٨ .

والبحر المتوسط والهند الشرقية والعالم الجديد ، وشجع الملك لويس الرابع عشر هذه السياسة حتى أنه ساهم بأمواله في هذه الشركات وشجع النبلاء على الاسهام فيها (٧٩) . واستتبع الاهتمام بالتجارة نمو البحرية التجارية والأسطول الفرنسي وكانت خطة كولبير أن يمتد النفوذ التجارى الفرنسى حتى الشرق الأقصى (٨٠) .

وجدير بالذكر انه في الوقت الذي سعت فيه فرنسا للانفتاح على الشرق توترت علاقاتها مع الدولة العثمانية خلال القرن السابع عشر وذلك بعد التقارب الفرنسى العثمانى الذى شاهده القرن السادس عشر .

غير ان السنوات الأولى من القرن السابع عشر قد شهدت بداية طيبة للعلاقات الفرنسية العثمانية ففي عام ١٦٠٤ وى عهد السلطان أحمد خان نجح السفير الفرنسى فرانسوا سافارى دى بريف (François Savary De Brèves) فى تجديد الامتيازات التى حصل عليها الفرنسيون منذ عام ١٥٣٦ مع احتفاظهم بحرية التجارة بشرط دفع الضرائب فى الجمارك . وقد اجتهد السفير الفرنسى طوال فترة عمله فى استانبول لتقوية النفوذ الفرنسى واضعاف النفوذ البريطانى (٨١) .

ثم بدأت العلاقات بين الطرفين تتسم بطابع التوتر عندما قدم أحد موظفى السفارة الفرنسية فى الآستانة المساعدات لنبل

(٧٩) المرجع السابق ص ١٩٠ .

Deschamps : Histoire de La question Coloniale (٨٠)

France Paris 1891 P. 140.

Carré : Op. Cit., P. 20.

(٨١)

من بولونيا وساعده على الفرار من سجنه فأمر السلطان مصطفى خان بسجن الكاتب والمترجم والسفير الفرنسي ولم يفرج عنهم الا بعد تولى عثمان خان الذي حاول اعادة العلاقات الودية مع فرنسا فأرسل بعثته عام ١٦١٨ الى الملك لويس الثالث عشر برئاسة حسين جاويش يعتذر له عما لحق السفير الفرنسي من اهانة (٨٢) .

تم انشغلت الدولتان حتي منتصف القرن السابع عشر باضطراب احوالهما الداخلية فبالنسبة للدولة العثمانية ساد الاضطراب فيها بسبب تكرار عزل السلاطين (٨٣) أما فرنسا فقد انشغلت بحرب الثلاثين عاما والتي انتهت بتوقيع صلح وستفاليا عام ١٦٤٨ كذلك ركز الساسة الفرنسيون خلال هذه الفترة على اضعاف شأن الهابسبورج في أوروبا . وقد أدى انشغال فرنسا بأحوالها الداخلية الى ضعف نفوذها لدى الباب العالي ، حتى أن البندقية حصلت على حق حماية الكنائس المسيحية في غلطة في عهد مراد الرابع ولم تدافع فرنسا عن امتيازاتها في بيت المقدس فالت الى اليونانيين (٨٤) .

وفي عهد السلطان محمد خان (١٦٤٨ - ١٦٨٧) ازداد التوتر بين الدولة العثمانية وفرنسا فقد تم اكتشاف رسالة أرسلها دي لاهاي Da La Haye في استانبول الى البندقية وكانت فرنسا تقدم لها المساعدات سرا أثناء دفاعها عن كريت ضد

(٨٢) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٢٩ .

(٨٣) مصطفى خان ١٦١٧ عزل ١٦١٨ - عثمان خان عزل ١٦٢٥ - تولى

مصطفى ١٦٢٢ - ١٣٩ مراد الرابع ١٦٣٩ - ١٦٤٧ - ابراهيم الاول ١٦٤٠ - ١٦٤٨ .

(٨٤) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٢٩ .

القوات العثمانية ، ووقعت الرسالة في يد كوبريللي الصدر الأعظم عام ١٦٥٩ فاستدعى السفير الفرنسي الذي رفض الحضور وأرسل ابنه بدلا منه فقام الوزير بسجنه واضطر دي لاهاي للذهاب الى الأستانة لانقاذ ابنه ولكنه رفض فك رموز الرسالة . ولما علم الوزير الفرنسي مزارن أرسل الى الأستانة سفيرا فرنسيا فوق العادة وهو دي بلندل ومعه خطاب من الحكومة الفرنسية يطلب فيه عزل الصدر الأعظم والاعتذار عن احتجاز السفير الفرنسي فلما رفض الصدر الأعظم محتويات الرسالة ساعدت فرنسا كريت جهارا وامتدتها بأربعة آلاف جندي فرنسي (٨٥) . وفضلا عن ذلك فقد أمدت النمسا بالمال للانتقام من السلطان محمد خان اثناء حصاره لقلعة نوهزل ولكن كوبريللي أحمد باشا نجح في الاستيلاء على القلعة عام ١٦٦٣ فطلب امبراطور النمسا ليوبولد النجدة من أمراء أوروبا وطلب وساطة البابا اسكندر السابع لطلب المساعدة من لويس الرابع عشر ملك فرنسا فأمدته بستة آلاف جندي فرنسي وأربعة وعشرين من حلفائه الألمان ولكن كوبريللي أحمد احتل سرنوار على نهر راب وتوغلت قواته في قلب الجيش النمساوي عام ١٦٦٤ وتدخلت فرنسا لنجدة النمسا في موقعة سان جوتار وبعد عدة مراسلات تم ابرام الصلح بين الطرفين (٨٦) .

وحاول كولبير اصلاح العلاقات بين البلدين فأرسل سفيرا فرنسيا للتقرب من الدولة العثمانية ولكنه أساء الاختيار لأنه كلف دي لاهاي السفير السابق بهذه المهمة فرفض كوبريللي أحمد تجديد الامتيازات التجارية الفرنسية بل حرم فرنسا من مرور

(٨٥) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٣٢ .

(٨٦) المرجع السابق ص ١٣٤ .

بضائعها من مصر الى السويس الى الهند ومنح جنوه امتيازات مثل بريطانيا فسارعت فرنسا بمساعدة كانيا التي كانت تحاصرها القوات العثمانية لمدة عامين . وبذكر الرحالة الفرنسي الأب كوبان بأن لويس الرابع عشر عرض على البابا تكوين حلف صليبي ضد الأتراك ووضع ليبنى Leibniz مشروعا لفزو مصر ولكن لويس الرابع عشر لم يحاول تنفيذ المشروع لأنه كان حريصا على الامتيازات التي يحصل عليها الفرنسيون فخشي أن يفقدها نهائيا (٨٧) .

وفي عام ١٦٧٠ أرسل لويس الرابع عشر السفير دى نوانتل Nointel على ظهر سفينة كبيرة الى الاسكندرية لارهاب الصدر الأعظم لتجديد الامتيازات ولكن الأخير أكد للسفير الفرنسي أن الامتيازات العثمانية « منحة سلطانية » وليست « معاهدات اضطورية » واجبة التنفيذ فازدادت العلاقات توترا بين الطرفين لولا تدخل كولبر الذي استطاع بسياسة اللين تارة والخضوع تارة أخرى أرضاء الدولة فجددت الامتيازات عام ١٦٧٣ وحصلت فرنسا من جديد على حق حماية بيت المقدس وتحسنت العلاقة بين الطرفين (٨٨) . ويذكر الأب كوبان أن الامتيازات الفرنسية جددت بعد جهد طويل وبعد العديد من المفاوضات والبعثات الى أن نجح السفير الفرنسي جيرردان Girardin عام ١٦٧٣ في تجديدها (٨٩) .

هذا وعلى الرغم من توتر العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية في القرن السابع عشر الا أن هذا القرن شهد اهتماما

Coppin, J. : Les Voyages de Jean Coppin 1639 --- (٨٧)
Le Caire 1971 P. 3.

(٨٨) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٣٦ .
Coppin : Op Cit., P. 4. (٨٩)

كثيرا بعلوم الشرق فترجم De Ryer القرآن الكريم الى الفرنسية ، واهتم الرحالة الفرنسي Thevenot بجمع المخطوطات وتأسست في فرنسا في عام ١٦٩٧ المكتبة الشرقية وشجع كولبير هذا الاتجاه وأسست كراسي اللغات في كلية فرنسا فأسس كرسي اللغة العربية والتركية والفارسية ومن أشهر من عمل فيها فانييه Vatier الذي عمل أستاذا للغة العربية ، وشجع كولبير الرحلات الى الشرق الى فارس والهند ومصر وحرص على ارسال البعثات التبشيرية مثل بعثات الكابوسين (٩٠) .

وسعيا وراء توطيد الصلات مع الشرق أصدر كولبير أوامره بتأسيس مدرسة للترجمة لكي يعمل خريجوها كوسطاء بين القناصل والسفراء الفرنسيين والأتراك - فتم تأسيس *Enfants De Langue* للحصول على ترجمة دقيقة وذلك في ١٧ نوفمبر ١٦٦٩ وتم الاتفاق مع الآباء الكابوسين في برا وازمير على ارسال ثمانية عشر طفلا تتراوح أعمارهم بين التاسعة والعاشر لكي يتعلموا في أديرة هؤلاء الرهبان اللغة العربية والتركية ثم يتم توزيعهم بعد ذلك على أسكالات الشرق وقد عمل بعضهم أستاذة للغة العربية (٩١) في الكلية الملكية الفرنسية وفي كلية لويس لى جران (٩٢) واهتم آخرون بالاستشراق وعينوا في مدرسة اللغات الشرقية ومنهم أيضا من عمل مترجما ملك فرنسا (٩٣) .

Carré : Op. Cit., PP. 14 --- 15.

(٩٠)

(٩١) من هؤلاء De Flennes عمل مترجما في الاسكندرية والقاهرة

١٦٩٥ م ثم أصبح أستاذا للغة العربية ١٧٣١ م في كلية لويس لى جران .

Clement : Op. Cit., PP. 70 --- 71.

(٩٢)

(٣) احمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٧ .

وشهد القرن السابع عشر ارسال البعثات الدينية الى الشرق وخاصة بعثات الكابوسيين . وطلب الأب Pacifique De Provens عام ١٦٠٩ من البابا ارسال البعثات الكابوسينة الى الشرق وحصل من البابا جريجورى الخامس عشر على اذن بتأسيس بعثته في استانبول ثم اقنع البابا بارسال المزيد من البعثات الى ازمير وصيدا ومصر وأرسلت البعثات الى حلب وبغداد وفارس وانصب اهتمام الكابوسيين في مصر على تحويل اقباطها الأرثوذكس الى المذهب الكاثوليكي وحاولوا ارسال بعثات الى الحبشة لنفس الغرض وقد تحدث كوبان وغيره من الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر خلال القرن السابع عشر عن تواجد الأباء الكابوسيين في القاهرة ورعاية القناصل الفرنسيين لهم (٩٤) .

اسكالة مصر :

هذا وقد اعتبر الفرنسيون اسكالة مصر من اهم اسكتلات الشرق وقد تولى رعاية مصالح الفرنسيين قنصل في القاهرة (٩٥) وعين نوابا عنه في الاسكندرية ودمياط ورشيد . وكان معظم القناصل الفرنسيين من اقليم بروفانس أو مارسيليا . وقد اتسمت ادارتهم بالسوء وعدم النظام ولم يتقنوا فن الادارة ، ثم دخل القناصل الفرنسيون في صراع فيما بينهم استمر لمدة ثلاثين عاما سجله الرحالة الفرنسيون الذين زاروا مصر خلال القرن السابع عشر فقد ظلت القنصلية في عائلة دى بريف لعدة

Clement : Op. Cit., PP 21 --- 24.

(٩٤)

(٩٥) كان البنادقة أول من أقاموا لهم قنصلا في الاسكندرية ١٣٤٦ وكان القنصل الفرنسى يتولى منصبه من الاسكندرية بينما استقر نوابه في القاهرة ولكن أصبحت القاهرة هى مقر القناصل الفرنسيين .

سنوات وفي عام ١٦٣٢ استأجر فليبار دي برمون Philbert De Bremond القنصلية في مصر لمدة ست سنوات من القنصل دي بريف ولكن في عام ١٦٣٤ أصدر الملك أمرا بتنحية دي برمون لاتهامه بالاختلاس وأوكلت شئون القنصلية الى تاجر بنسقى هو سانتو سيجيزى Santo Seghessi ولكن دي برمون ظل يقدم التماساته للملك حتى أعاده لوظيفته عام ١٦٣٥ فنشب صراع بين القنصلين دي برمون الذى يريد استعادة نفوذه وسانتو سيجيزى وانقسم التجار الفرنسيون الى فريقين وضغط أتباع سانتو لدى الباشا كي لا يستقبل دي برمون ولا يعترف به وتم حل هذه المشكلة بتعيين كريستوف دي بريمون قنصلا ولكن سانتو ظل يعمل في القاهرة مع التجار الايطاليين وأصبح قنصلا لليونانيين غير انه أخذ يدس لكريستوف دي بريمون القنصل الجديد لدى الباشا ثم جاء تعيين كابر قنصلا للفرنسيين ليضيف صراعا جديدا بين كابر وعائلة دي بريمون عام ١٦٤٢ وانقسم التجار من جديد وسجل مونكوني أثناء زيارته للقاهرة هذا الصراع الدائر بين القناصل والذى لم ينته واستمر الى أن قام كولبير باصلاحاته المعروفة (٩٧) فقد لجأ القناصل الى الدس لبعضهم البعض لدى الباشا في مصر ، ولدى السفير الفرنسى في استانبول ، ولدى غرفة تجارة مارسيليا ، وأعضاء برلمان اكس ، ولدى الملك مما أدى الى اضطراب التجار وسوء الأحوال في اسكالة مصر .

Clement : Op Cit., PP. 53 --- 59.

(٩٦)

(٩٧) لم تهدأ الأحوال بتعيين كريستوف دي بريمون فقد ناقسه بير دانطوان ثم عزل كريستوف وعين أونوريه بريمون ١٦٥٦ ثم فرانسوا دي بيج ان ان أونوريه دي بريمون نجح في انتزاع القنصلية منه وظل قنصلا حتى وفاته ١٦٧٠ .

وأخيرا لقد شهد القرن ١٧ اهتماما كبيرا من قبل الحكومة الفرنسية باسكالات الشرق خاصة اسكالة مصر وظلت الاسكالات مستقلة عن الملوك حتى عهد لويس الرابع عشر مما أدى الى انتشار الفوضى لأن الرقابة كانت ضعيفة على القناصل وانحصر اهتمامهم في البحث عن الثروة وتضاعفت ديون الاسكالات خاصة اسكالة مصر حتى بلغت الديون مائتي ألفا قرشا في عام ١٦٦١ ولذلك بدا كولبير سلسلة من الاصلاحات فأسس عام ١٦٦٤ مجلس التجار (٩٨) ثم جعل لغرفة تجارة مارسيليا كيانا مستقلا يشرف عليها ثلاثة قناصل وأربعة أعضاء من التجار وثمانية مستشارين والزم أعضاء الغرفة بالاجتماع يومين أسبوعيا لدراسة كل ما يتعلق بالتجارة (٩٩) .

تم أصبح لزاما على أى تاجر يريد التجارة من الشرق أن ينتمى لغرفة مارسيليا لينال منها رخصة تمكنه من مزاولة نشاطه والتمتع بحماية دولته والتاجر الذى يرخّص له بالسفر يجب الا يقل سنه عن اربعة وعشرين عاما وكانت الغرفة تدفع للقناصل رواتبهم ويرفعون اليها تقاريرهم وهم مسئولون أمام السفير الفرنسى فى استانبول (١٠٠) .

وجدير بالذكر أن أهم ما شغل كولبير واهتم به كان موضوع ديون الاسكالات فعمل على تقسيطها ودفعها . وكان الدائنون من الأتراك واليهود وأصدرت غرفة تجارة مارسيليا فى ٢٦ مارس

(٩٨) شارك فى هذا المجلس جان سافارى الذى ألف كتابا اعتبر دليلا للتجارة بعنوان :

Parfait Negoçant

Clément : Op. Cit., P. 67.

(٩٩)

(١٠٠) أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٤ .

عام ١٦٦٩ اعلانا بفرض ضريبة على السفن المتجهة الى مصر لتسديد ديون فرنسا لمصر . وفي عام ١٦٧٤ أعلن القنصل الفرنسي دى بونكورس أن ديون فرنسا لمصر قد قلت بدرجة ملحوظة . واهتم كولبير بتسديد الديون للسلطات الحاكمة أولا ثم اليهود ثم الفرنسيين الذين قبلوا تقسيط الديون لحكومتهم على مدى خمس سنوات . كذلك أراد كولبير تفادى دفع الغرامات التى كانت تفرض على القناصل فطلب من السفير الفرنسي فى استانبول دى نواتل عام ١٦٧٠ (١٠١) أن يصدر أوامره الى القنصل الفرنسى فى مصر بضرورة تفادى الغرامات فقد كان باشوات مصر يفرضون الغرامات على القناصل وتعرض الكثيرون منهم للضرب والسجن (١٠٢) حتى ان كوبان الذى عين نائب قنصل فى دمياط كتب فى رحلته أنه هو نفسه تعرض للسجن عدة مرات ولم يفرج عنه الا بعد دفع الغرامة المفروضة (١٠٣) .

وفى عام ١٦٨١ اصدرت وزارة البحرية الفرنسية تنظيما للاسكالات وقواعد لادارتها منها ، حق القنصل فى ترحيل أى مواطن بسبب سوء سلوكه ، وحقه فى اصدار كافة الأحكام القضائية مع الاستعانة بأربعة أعضاء من النبلاء وعدم أحقيته الاستدانة باسم فرنسا (١٠٤) .

ونتح عن اصلاحات كولبير أن القناصل أصبحوا موظفين ملكيين ، يتبعون الملك وهو الذى يمينهم بعد أن أخذ رأى غرفة تجارة مارسليا ومحافظ بروفانس ، وحرم عليهم الاشتغال

Clément : Op. Cit., P. 69.

(١٠١)

(١٠٢) أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٨ .

Coppin : Op. Cit., P. 332.

(١٠٣)

Clément : Op. Cit., P. 70.

(١٠٤)

بالتجارة أو جباية اية رسوم من التجار وقرر لهم رواتب ثابتة (١٠٥) .

وكان نجاح كولبير عام ١٦٧٣ في تجديد الامتيازات نصرا كبيرا للتجار الفرنسيين فقد أعقبه تخفيض النسبة التي يدفعونها في الجمارك فانخفضت الى ٣٪ بعد أن كانت ٢٠٪ في الاسكندرية و ١٠٪ في بولاق (١٠٦) .

ونظرا لأهمية اسكالة مصر فقد أرسل الوزير شيجنبلي دورتيير Dortieres لزيارة مصر والتعرف على مشاكل الاسكالة فيها واقنع دورتيير باشا مصر بالابقاء على نسبة الاعفاء المقررة للتجار الفرنسيين في استانبول (١٠٧) .

ثم أصدر الوزير بونشترتران Ponchartrain عدة أوامر لتنظيم عمل القناصل عام ١٦٩١ منها عدم أحقية القنصل في أن تكون له حقوق على المنشآت الفرنسية ، ومنع القنصل وخدمه وضباطه من العمل بالتجارة ، والا دفع غرامة كبيرة . ثم حدد الوزير في أوامر أخرى صدرت عام ١٦٠٤ مصاريف الاسكالات وأوجه الانفاق على المترجمين والخدم والمنازل (١٠٨) .

وأخيرا لقد حرص الرحالة الفرنسي كوبان على اللقاء الضوء على المشاكل التي عانت منها اسكالة مصر خاصة ما يتعلق منها بالمنازعات بين القناصل .

(١٠٥) أحمد مروت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٥ .
 Clément : Op. Cit., P. 76. (١٠٦)
 Ibid : P. 79. (١٠٧)
 Ibid : P. 79. (١٠٨)

الفصل الثاني

تعريف بالرحالة الفرنسيين

تقلصت العلاقة بين الشرق الإسلامى وأوروبا بعد انتهاء الحروب الصليبية التى تركت أثرا مريرا فى نفوس المسلمين وانحصرت الصلات بين الطرفين على النواحي التجارية خاصة خلال القرنين الثالث عشر والخامس عشر (١٠٩) ثم أدى التوسع العثمانى فى البلقان الى تكوين الأحلاف المسيحية لوقف هذا التوسع ، كذلك استمرت الحملات الصليبية على شمال افريقيا خاصة بعد ضياع الأندلس من المسلمين . ورغم وجود الصلات التجارية بين الشرق وأوروبا الا أن التجار الأوروبيين عاشوا على هامش المجتمعات الاسلامية وانعدمت العلاقات الاجتماعية بين الطرفين وساعد على ذلك تجمعهم فى حى خاص بهم تغلق أبوابه ليلا . وقد ساعد على انقطاع الصلات بين الطرفين ان البلاد العربية كانت حافلة بالمراكز الاسلامية مثل الأزهر والقىروان ودمشق وقد أطلق الأوروبيون عليها الكليات الملحقة بالمساجد فلم يشعر المسلمون خلال تلك الفترة بحاجاتهم الى الاتصال بالغرب (١١٠) .

وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية قد تركت أثرا كبيرا فى نفوس المسلمين بعد تجربتهم مع الغرب الأوروبى الا ان ذلك لم

(١٠٩) أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى تاريخ العرب الحديث القاهرة ١٩٧٠ ص ١٥ .

(١١٠) عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق . الدولة العثمانية ، ج ٢ ص ٧٢٤ .

يمنع من قدوم بعض الرحالة الى مصر (١١١) في الفترة الواقعة بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر ، غير أن هذه الرحلات اتسمت بالطابع الفردي ولم يحرص أصحابها على تسجيل متاهدتهم ، وهو ما يفسر لنا ندرة الكتابات الأوروبية عن القاهرة (١١٢) .

وقد عبر الرحالة الفرنسي جان تينو عن أسفه لعدم وجود اعداد كبيرة من الرحالة الذين زاروا مصر قبل القرن السادس عشر وما ترتب على ذلك من ندرة الكتابات الأوروبية عن مصر . فذكر « أن معلوماتنا نادرة وقليلة عن توران شاه وحملات بيبرس وقلاوون والأشرف خليل والناصر محمد ولكنه أرجع سبب انقطاع الرحالة عن مصر والشرق الى الاضطرابات التي نتجت عن الحروب الصليبية والتي أدت الى انصراف الحجاج والمسافرين عن الشرق وعن زيارة الأماكن المقدسة وأكد أن الذين زاروا مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر « كانوا اما مدفوعين

(١١١) أهم هذه الرحلات خلال هذه الفترة ، رحلة الكونت دي فلاندر ديتو دي شاتيون في عام ١١٧٧ .

Comte De Flandre, Renaud De Chatillon

ورحلة الطبيب دي ماندفيل الى سيناء عام ١٣٣٦
Liégeois Jean De Mandeville

Philippe Des Mézières رحلة مزيار الى سيناء عام ١٣٤٧

Huges رحلة القس هوج عام ١٣٦٠

Philippe d'Artois وفي عام ١٣٨٩ رحلة فيليب دارتوا

Champanois وفي عام ١٣٩٥ رحلة البارون شامبونوا

Georges Lengheraud. وفي عام ١٤٢٢ - ١٤٨٥ رحلة جورج لنجيران

Jean Maire Carré : Voyageurs et écrivains en Egypte (١١٢)

le Caire 1932. Tome 1 P. 2.

بعاطفة دينية جياشة لزيارة الأماكن المقدسة ، أو تجاراً سعوا وراء المغامرة والريح الوفير » (١١٢) .

وجدير بالذكر أن القرن السادس عشر قد شهد اتصالات أوروبية جديدة بالشرق ومحاولات لدراسته والتعرف على أحواله ففي أوائل هذا القرن أمر البابا جوليوس الثاني بتأسيس مطبعة عربية نشرت أول كتاب باللغة العربية وهو كتاب « صلاة سواعي » عام ١٥١٤ ، تم انتقلت الطباعة العربية الى جنوه حيث نشر عام ١٥١٦ سفر الزبور بأديع لغات (١١٤) مع ترجمة لاتينية ثم انتقلت الطباعة العربية الى البندقية وطبع القرآن الكريم باللغة العربية عام ١٥٣٠ بم توالى نشر العديد من الكتب العربية في المطابع الايطالية وأكرها كسب دينية ، وذلك لحاجة البعثات التبشيرية الكاثوليكية لها في الشرق كذلك نشرت كتب علمية منها « كتاب البسنان في عجائب الأرض والبلدان » طبع في مطبعة الآباء اليسوعيين في روما عام ١٥٨٤ ، وكتاب مبادئ اللغة العربية ، وكتاب « نزهة المشتاق في ذكر الامصار والآفاق » للادريسي عام ١٥٩٢ وقانون ابن سينا في الطب . أما المطبعة الملكية بباريس فطبع بها أول كتاب وهو « صنامة النحو » لجبرائيل الصهيوني ، ثم انتشرت الطباعة العربية في العواصم الأوروبية وتوالى صدور الكتب العربية (١١٥) .

وفي القرن السادس عشر ظهرت أولى الكتابات الهامة عن مصر باللغة الفرنسية سجلها الرحالة الفرنسيون الذين زاروا مصر خلال هذه الفترة . وتم تداول هذه الكتابات من قصر الى قصر

Jean Thenaud : Op Cit., P. 7.

(١١٣)

(١١٤) العربية - اليونانية - الكلدانية - العربية .

(١١٥) أحمد عزت عيد الكريم : المرجع السابق ص ٩٠ ، ٩١ .

ومن كنيسة الى كنيسة وبقي البعض منها مخطوطا حتى تم طباعته . وتمثل هذه الكتابات وتائق تاريخية وحضارية هامة . فقد اعتبر الفرنسيون أن اكتشاف مصر والشرق مغامرة محيية اليهم لأن « الشرق كان بعيدا عنهم بعد النجوم في السماء » (١١٦) .

ويعتبر جان تينو هو أول من زار مصر من الرحالة الفرنسيين في مطلع القرن السادس عشر ، أى قبيل وقوعها في يد الدولة العثمانية وقد زارها نينو مع بعثة السفير الفرنسى أندريه لى روى الذى أوفده الملك لويس الثانى عشر الى قانصوه الغورى . وقد وضع تينو كتابا سجل فيه مشاهداته في الشرق وخصص الفصول الأخيرة منه عن سيناء والأماكن المقدسة وعن القاهرة وكان الغرض الرئيسى لبعثته لى روى هو رغبة لويس الثانى عشر التقرب من الغورى خاصة وأن فرنسا خلال هذه الفترة كانت مشغولة بحروبها في ايطاليا ونزاعها مع البندقية (١١٧) .

وقد أعجب تينو بالشرق ومصر حتى أنه ذكر « رغم ما كتبه العرب عن مصر والقاهرة إلا أن كتاباتهم لا تضارع كتابات الأوروبيين عنها وذلك لأنها تعكس وجهة النظر الأوروبية » (١١٨) .

ويعد جريفان افاجار Greffin Affagart وهو من رجال الدين ومن أثرياء مدينة مبن - أول من زار مصر بعد أن أصبحت ولاية عثمانية ، وقد زارها في عام ١٥٣٣ (١١٩) ومن الاسكندرية بدأ في زيارة سائر المدن المصرية فزار رشيد والقاهرة ثم ذهب الى

Carré : Op. Cit., PP. 4 --- 5.

(١١٦)

Clément : Op. Cit., P. 5.

(١١٧)

Thenaud : Op. Cit., P. 17.

(١١٨)

Clément : Op. Cit., P 5.

(١١٩)

القدس وعاد الى القاهرة مرة ثانية لزيارة سيناء ، وأثناء عودته
انتشر الطاعون في البلاد فتوجه الى دمياط ومنها الى طرابلس
وسوريا وبيروت وبيت المقدس ثم سافر الى قبرص ومنها الى
بلاده (١٢٠) .

وجدير بالذكر أن العديد من الرحالة الفرنسيين الذين زاروا
مصر في القرن السادس عشر وكانوا من رجال الدين حرصوا بعد
تأديتهم فريضة الحج في القدس على زيارة مصر حيث المزارات
المسيحية الهامة . ففي سيناء يوجد جبل موسى وكنيسة
سانت كاترين وفي مصر القديمة كنيسة أبى سرجة (١٢١) .

أما الطبيب الفرنسي بربيلون دى مان
Pierre Belon De Mans — فكان عالما طبيعيا — قدم وصفا
دقيقا للبيئة المصرية وزار مصر في الفترة ما بين ١٥٤٧ — ١٥٤٩ ،
وكذلك تجول في آسيا واليونان والجزيرة العربية وجدة . وقد
تم تجميع رحلات بيلون بطريقة سيئة فلا أهمية لها من الناحية
الأدبية ولكن ترجع أهميتها الى أنها وصفت البساتين الطبيعية التي
زارها بيلون . وقد نشر كتابه عن الأسماك عام ١٥٥١
Histoire des Poissons ، وفي عام ١٥٥٥ تم نشر كتابه عن
العصافير Histoire de la nature des oiseaux أما كتابه الثالث
Relation de Voyage فهو عن رحلاته الى الشرق نشر عام ١٥٥٥
وقد لقي بيلون تشجيعا من ملوك فرنسا خاصة هنرى الثانى
وشارل التاسع . وفي كتابه الذى خصص الجزء الثانى منه
للحدث عن مصر والاسكندرية وعقد مقارنة بين رشيد والاسكندرية
ذكر فيه أنه حرص أثناء رحلاته على ارتداء ملابس رهبان

Carré : Op. Cit., P. 6.

(١٢٠)

Ibid : P. 2.

(١٢١)

الفرنسيسكان وذلك « لأن المسلمين أقلّ عداء تجاه رجال الدين من عدائهم للتجار والرحالة لأنهم يعتبرونهم باحثى ثروة » وقد زود بيلون كتبه بالرسوم والصور عن مظاهر الحياة الطبيعية التى شاهدها (١٢٢) .

هذا وقد قتل بيلون فى عام ١٥٦٤ فى غابة بولونى بعد أن هاجمه بعض اللصوص وتعتبر كتاباته أساسا لعلم الحيوان لأنها ركزت على وصف الحيوانات والنباتات (١٢٣) .

وخلال فترة تواجد بيلون فى الشرق زار مصر جان شسنو سكرتير السفير الفرنسى دارمون الذى كلفه الملك قرانسوا الأول بالتفاوض مع السلطان سليمان القانونى للتصدي لمخططات شارل الخامس فى البحر المتوسط فوصل دارمون الى استانبول عام ١٥٤٧ - وعندما توفى فرانسوا الأول خلفه ابنه هنرى الثانى فسعى بدوره لتجديد الصلات السياسية مع سليمان القانونى فأرسل سفيرا جديدا هو دى فوميل De Fumel ، ولكن دارامون نجح فى ازاحته من طريقه بفضل اتصالاته وعلاقاته مع الوزراء فى استانبول ولم يقبل سليمان القانونى سوى التفاوض مع دارامون بوصفه الممثل الرسمى لفرنسا (١٢٤) .

وأثناء وجود دارامون فى استانبول التقى بالطبيب الفرنسى بير بيلون الذى سبق الحديث عنه ، كذلك التقى برجل الدين

Clément : Op Cit., P. 7.

(١٢٢)

Pierre Belon de Mans : Le Voyage en Egypte 1547 (١٢٣)

Le Caire 1969. P. 3.

Chesneau : Voyage de Sieur D'Aramont ambassadeur (١٢٤)

Pour Le Roy en Levant, faits de Paris à Constantinople L'an 1547 et de Constantinople en Perse en l'an 1548 escripts par le Sieur d'Aramont. Le Caire 1984 P.3.

أندريه تيفيه ، وحسب أقوال الأخير لقي دارامون التشجيع من الأتراك وحصل على ثقة سليمان القانوني حتى إنه دعاه لمرافقته في حملاته العسكرية في فارس ، وعندما وصل دارامون الى حلب في ٨ يونيو ١٥٤٩ استأذن السلطان سليمان في أن يسمح له بزيارة الأماكن المقدسة في بلاد الشام وبعد أن أتم زيارته لبيت لحم انتهز الفرصة وتوجه الى مصر حيث استقبله في القاهرة الوالي التركي على باشا في أغسطس ١٥٤٩ . ومن القاهرة اتجه الى الاسكندرية حيث التقى بالقنصل الفرنسي والتجار الأوروبيين ، ثم عاد الى دمشق ومنها الى استانبول في ٢٨ يناير ١٥٥٠ م ، ومكث عاما في العاصمة التركية اقنع خلاله السلطان سليمان القانوني بالاشتراك مع هنري الثاني ملك فرنسا في مهاجمة شارل الخامس . وعندما عاد دارامون الى فرنسا عام ١٥٥٢ « قبل بالازدراء وذلك لقبوله التعاون مع المسلمين والاتصال بهم » (١٢٥) .

ونتوقف قليلا عند هذه العبارة التي ساقها شسنو سكرتير السفير الفرنسي ونتعجب من ازدراء الرأي العام الفرنسي من سفيره بسبب اتصالاته مع الدولة العثمانية المسلمة التي لم يجد ملوك فرنسا أنفسهم الحرج في الاتصال بها لمساعدتهم أثناء الحروب الإيطالية والواقع أن هذه الروح العدائية تجاه الدولة العثمانية ظلت موجودة في أوروبا وفرنسا نفسها هذا وقد أشرنا من قبل الى أن البابا جوليوس الثاني اعتبر الاتصالات الفرنسية بالدولة العثمانية « عارا كبيرا » فقد تكونت في القرن السادس عشر العديد من الحملات الصليبية ضد الدولة العثمانية على أمل استبعادها من البلقان .

والواقع أن دارامون السفير الفرنسي لم يسجل بنفسه رحلته

الى الشام ومصر بل قام سكرتيره شسنو بهذا التسجيل وظهرت
في باريس خمس نسخ تحمل اسم « رحلة من باريس الى
القسطنطينية » باسم شسنو
Voyage de Paris en Constantinople
توجد اربع نسخ في المكتبة الوطنية في باريس والنسخة الأخيرة
في مكتبة الارسينال (١٢٦) .

وعلى الرغم من أن أندريه تيفيه كان من رجال الدين الا أنه
اهتم اهتماما كبيرا بالجغرافيا والقت كتاباته الضوء على
جغرافية الشرق ومصر . اُضيف الى ذلك ان معظم كتاباته لها
طابع عالمي ، اذ قدم من خلالها وصفا جغرافيا دقيقا للبلاد التي
زارها ، مثل البرازيل واليونان وتركيا وجزر بحر ايجيه وايطاليا
في الفترة ما بين عام ١٥٤٩ - ١٥٥٣ . وقد واثته فكرة زيارة
الأماكن المقدسة في بلاد الشام ومصر عندما كان في ايطاليا عام ١٥٤٩
وقابل الكاردينال دي لورين De Lorraine الذي عرض عليه
السفر الى الأماكن المقدسة وقد تقابل تيفيه مع السفير الفرنسي
دارامون أثناء قيامه بعدة رحلات على البحر المتوسط
خلال عام ١٥٥١ - ١٥٥٢ . وقد مكث في مصر أربعة أشهر خلال
شتاء عام ١٥٥٠ - ١٥٥١ فقدم وصفا عنها في كتاباته التي شاع
عليها الكتابات الاغريقية القديمة وذلك عندما حاكى كتابات كل من
هيرودوت وديدرو وطابع كتابات رجال الكنيسة المسيحية مثل
سانت أوجستين (١٢٧) .

هذا وقد وضع أندريه تيفيه ثلاثة كتب سجل فيها رحلاته
ومشاهداته ونشر الأول عام ١٥٥٤م باسم
Cosmographie du Levant

Ibid : PP. 10 --- 15.

Thevet, André : Voyages en Egypte 1549 --- 1552 Le C (١٢٦)

1984 PP. 35 --- 40.

تناول فيه زيارته لاستانبول واليونان والبحر الأسود ومصر . ورغم انه تناول في كتابه الحديث عن جغرافية الشرق بصفة عامة الا انه خصص ثلاثة عشر فصلا عن مصر والاسكندرية وبدا واضحا تأثره بكتابات هيرودوت وبلوتارك وسانت أوجستين اذ سجل مشاهداته عن الطبيعة والحيوانات كذلك وصف الآثار والحضارات القديمة . ويرجع الفضل الى فرانسوا دى بلغوريه François De Belleforest صديق تيفيه في كتابة كتاب تيفيه عن الشرق اى ان تيفيه لم يكتب كلمة واحدة وانما ترك هذه المهمة لصدقه بلغوريه ولكن تيفيه املى عليه ما شاهده وما درسه في الشرق وقد طبع الكتاب في عام ١٥٥٤ في ليون ثم ظهرت منه عدة طبعات في ليون عام ١٥٥٦ (١٢٨) .

اما كتاب تيفيه الثانى وهو عن جغرافية العالم Cosmographie Universelle فقد نشره عام ١٥٧٥ م بعد ان أصبح تيفيه الجغرافى الخاص بالملك هنرى الثالث وقد كتب بنفسه هذا الكتاب وخصه بالحديث عن الجغرافية العالمية وان كان قد حوى بعض الاخطاء الجغرافية وفي هذا الكتاب خصص فصلا بأكمله تحدث فيه عن طومان باي « وأكد انه لا يقل مكانة عن صلاح الدين » وقد نشر هذا الكتاب في أربعة أجزاء مزودا بالرسوم خصص الجزء الثانى منه لمصر حيث أفاض في الحديث عنها في عشرة فصول (١٢٩) .

اما كتاب تيفيه الثالث فكان عن الملوك Le Grand insulaire et Pilotage d'André Thevet Comographie du Roy

Ibid : P. 54.

(١٢٨)

Ibid : P. 75.

(١٢٩)

وقد نشر هذا الكتاب عام ١٥٨٧ وفيه قدم أيضا وصفا عن جزر المحيط الهندي - والبحر المتوسط والفلبين وبحر ايجه وجزر المالديف ورودس ، وسواكن وقدم وصفا لسكلوه وكتب عن رشيد (١٢٠) .

أما جان بالرن Jean Palerne ، فقد قام بزيارة مصر في عام ١٥٨١ وطاف بالقاهرة ، والاسكندرية ، ورشيد ، وسيناء وقام بهذه الزيارة في عهد الملك هنري الثاني ، هذا وعلى الرغم من كونه من رجال الدين الا أنه كان شاعرا أيضا وله أشعار محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس (١٢١) .

وقد سجل بالرن رحلاته في كتاب طبع عام ١٦٠٦ حوى البلاد التي زارها في الشرق طرابلس الشام وسوريا والأراضي المقدسة في بلاد الشام ، استانبول - مصر ومدنها : الاسكندرية ، رشيد ، ودمياط (١٢٢) .

ومع نهاية القرن السادس عشر زار مصر دى فيلامون عام ١٥٨٩ وكان من رجال الدين أيضا وحصل على إذن من البابا في روما بزيارة الأماكن المقدسة فتوجه الى بلاد الشام وزار الشام ودمشق ولبنان ثم زار مصر واستغرقت رحلته في مصر أربعة أشهر زار خلالها مدن الوجه البحري ، وأثناء عودته وقع في أسر المغاربة ، ولكنه نجح في فك أسره وتوجه الى البندقية

Thevet : Op. Cit., P. 82.

(١٢٠)

Poesies de Jean Palerne Foresien

(١٢١)

Palerne, Jean : *Le Voyage de Jean Palerne Foresien* (١٢٢)

Le Caire 1970. PP. 1 --- 2.

ومنها الى فرنسا ، وقد نشر كتابه عام ١٥٩٥ م ثم توالى طبعات النشر فطبع حوالى ٢٦ طبعة فى ليون وروان وباريس (١٢٣) .

وهكذا نصل من خلال استعراض الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر فى القرن السادس عشر الى القول بأن معظمهم كانوا من رجال الدين وأنهم حرصوا على تأدية فريضة الحج فى بلاد الشام . أو زيارة المزارات المسيحية فى مصر سواء فى القاهرة أو مصر القديمة أو الاسكندرية أو صحراء سيناء فيلاحظ أن بعض هؤلاء الرحالة بالإضافة الى مهنتهم كرجال دين - قد كلفوا بمهام سياسية مثل جان تينو الذى اتصل بالفورى بناء على أوامر من لويس الثانى عشر ملك فرنسا كذلك سسنو سكرتير السفير الفرنسى دارامون وكان الغرض الرئيسى لدارامون هو الاتصال بالدولة العثمانية ولكنه استأذن سليمان القانونى لزيارة الأماكن المقدسة .

كذلك نلاحظ أن البعض منهم كان عالما طبيعيا ، كذلك كان منهم الجغرافى مثل أندريه تيفيه وكان منهم الشاعر والأديب مثل بالرن .

هذا وقد زار هؤلاء الرحالة مصر فى عهد أسرة الفالوا ابتداء من لويس الثانى عشر حتى هنرى الثالث ورحلاتهم جميعا تمت بعد أن أصبحت مصر ولاية عثمانية باستثناء جان تينو الذى زار مصر فى عهد الفورى .

وقد اقتصرت زيارة هؤلاء الرحالة على مدن الوجه البحرى مثل الاسكندرية ، دمياط ، رشيد ، القاهرة . وقدموا وصفا

Le Seigneur De Villamont : Voyage en Egypte 1 (١٢٣)
Le Caire 1971. PP. 157 --- 158.

لمدن وقرى الدلتا ولم يحاولوا التوغل في صعيد مصر وإنما اكتفوا بمدن الوجه البحرى بالإضافة الى زيارتهم لسيناء لأن بها دير سانت كاترين بالإضافة الى كونها معبرا لهم من بلاد الشام الى مصر .

وقد تشابهت كتابات الرحالة الفرنسيين فوصفوا جميعا المزارات المسيحية وصحراء سيناء وميناء السويس والمدن المصرية والآثار القديمة . وقدموا وصفا موجزا لطبقات المجتمع والاحتفالات والأعياد .

وقد اطلعت على ما كتبه رحالة آخر معاصر للفترة الزمنية التى قام فيها الرحالة الفرنسيون برحلاتهم الى مصر وهو الحسن بن محمد الوزان الزياتى (١٣٤) . الذى زار مصر عام ١٥١٧ والتقى بالسلطان سليم فى رشيد - فوجدت ان هناك تشابها كبيرا بين ما كتبه الوزان وما كتبه الرحالة الفرنسيون خاصة فيما يتعلق بوصف المدن والقرى وان كانت كتابات الوزان جاءت أعمق وأشمل فقد زار مدن الوجهين البحرى والقبلى (١٣٥) . وهكذا نجد أن كلا من الوضع السياسى فى القرن السادس عشر

(١٣٤) الحسن بن محمد الوزان الزياتى قام بعدة رحلات الى افريقيا وسقط أسرا ١٥١٨ صنف كتابه وصف افريقيا ١٥٢٦ بعد ثمانية أعوام فى الأسر وفى اقامته فى ايطاليا درس الايطالية - اللاتينية وتذكر بعض المصادر أنه استطاع الافلات من ايطاليا ١٥٢٨ - ١٥٣٠ واتجه الى تونس وتوفى فيها وقد لقب بابون الافريقى لانه عندما وقع فى الأسر اهدى الى البابا لير العاتر فسماه ليو الافريقى وحمله على اعتناق المسيحية وقد نشر كتابه وصف افريقيا ١٥٥٠ فى البندقية وفى ١٥٥٥ ظهرت ترجمة فرنسية ثم ترجمة لاتينية ١٥٥٧ ثم انجليزية ١٦٠٠ وهولندية ١٦٦٥ وأعيد نشره بمختلف اللغات . (١٣٥) الحسن بن الوزان الزياتى : وصف افريقيا . ترجمة عبد الرحمن حميدة الرياض ١٩٩٠ .

والتقارب الفرنسي العثماني الملحوظ في عهد أسرة ألفالوا قد ساعداً
الرحالة انفرنسيين على المجيء الى مصر .

أما عن الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر في القرن
السابع عشر فنجد أن منهم السياسي ورجل الدين والعالم
الفيزيائي . ففي مستهل القرن السابع عشر زار مصر - السفير
الفرنسي في استانبول فرانسوا سافاري دي بريف وكان قد أرسل
من قبل الملك هنري الرابع لتجديد الامتيازات الفرنسية مع
السلطان احمد (١٢٦) وقد زار دي بريف مصر أثناء مسوره من
تونس الى الاراضي المقدسة في فلسطين عام ١٦٠٤ ولم يسبب
دي بريف أخبار رحلته للشرق بنفسه وإنما سجلها مرافقه
دي كاستل De Castel ونشرها بعد وفاه دي بريف باسم
Du Castel Relatoin des Voyages de M. De Brevès

وتناول الكتاب أحوال الشرق بصفة عامة وكان نصيب مصر
فيما كتبه دي كاستل لا يتجاوز خمسين صفحة (١٢٧) . ويجدير
بالذكر أن البارون بوفو Beauvau رافق دي بريف في رحلته
في الشرق وزار مصر ورشيد والقاهرة عام ١٦٠٥ ولكنه لم
يملك في القاهرة سوى تسعة أيام وقد نشر بدوره كتاباً وصف
فيه رحلاته في الشرق لم يتجاوز ما ذكره عن مصر سوى
اثنى عشرة صفحة (١٢٨) .

وتعتبر كتابات كل من فرمنال وكوبان ودي منكوني من أهم
الكتابات التي أعطتنا وصفاً دقيقاً لمشاهدات وملاحظات هؤلاء
الرحالة عن مصر في النصف الأول من القرن السابع عشر .

Carré : Op. Cit., P. 20.

(١٢٦)

Clément : Op. Cit., P. 23.

(١٢٧)

Ibid : P. 33.

(١٢٨)

زار جيل فرمنال مصر عام ١٦٣١ وكان عضواً في برلمان نورماندى جاء بصحبة بعض زملائه الى مصر فرافقه في رحلاته كل من دى فنسنان ستوشوف De Vincent Stochove وهو بلجيكي وزميله الفرنسى روبرت فوفيل Robert Fauvel وقد انتهز الثلاثة فرصة آدائهم مناسك الحج في فلسطين فقرروا القيام بعدة رحلات وزيارات في المناطق الواقعة بين سوريا والعراق ثم زاروا مصر وكان دى فنسنان ستوشوف هو أول من سجل وكتب عن رحلاته في الشام ومصر ولتأثره بالثقافة الفرنسية دون رحلاته باللغة الفرنسية رغم أنه كان بلجيكيا . وقد ساعده هو وزملاءه على التجول في الشام ومصر فرمان حصل عليه من السلطان مراد الرابع سمح له بزيارة هذه الأماكن وقد نشر دى فنسنان كتابه عام ١٦٤٣ سجل فيه ملاحظاته عن الشرق ومصر ثم أصدر طبعة ثانية عام ١٦٥٠ عدل فيها كثيرا من الأخطاء الإملائية التي جاءت في الطبعة الأولى وتوجد نسختان من كتاب فنسنان في مكتبة بروكسل في بلجيكا (١٣٩) . وقد نادى دى فنسنان في كتاب بضرورة تكوين الأحلاف الصليبية ضد الدولة العثمانية (١٤٠) .

اما فرمنال فقد قرر تأليف كتاب يتضمن أخبار رحلاته الى الشرق ومصر خاصة بعد أن وجد أن كتاب زميله قد حقق نجاحا كبيرا فظهرت أولى طبعاته في فرنسا عام ١٦٦٤ (١٤١) ثم ظهرت الطبعة الثانية في روان وجاء كتاب فرمنال مطابقا لما كتبه ستوشوف مع بعض الاختلافات أو الإضافات البسيطة.

-- Voyage De Sieur De Stochove fait es années 1630 (١٣٩)
1631 --- 1632 --- 1633.

Voyage en Egypt 1631 le Caire 1875 — P. 1 — 5. (١٤٠)

— De Vincent Stochove, Gilles Fermandel , Robert Fauve :

— Le voyage d'Italie et du Levant (١٤١)

وترجع أهمية كتابات فرمنال أنه الوحيد من بين الرحالة الفرنسيين الذي تحدث عن الأزهر ودوره التعليمي كجامعة وأبدى إعجابه الشديد به .

أما الزميل الثالث لفرمنال وستوشوف وهو روبرت فوميل فقد توفي في روان ودفن في كنيسة سان دنيس عام ١٦٦١ (١٤٢) .

هذا وتعتبر رحلة الأب كوبان من أهم الرحلات في النصف الأول من القرن السابع عشر فقد زار مصر عام ١٦٣٨ وكان يعمل ملازما في سلاح الفرسان في فرنسا ثم سافر الى استانبول وقام برحلتين الى مصر . الأولى في أواخر يناير ١٦٣٨ واستمرت حتى يوليو ١٦٣٩ والثانية عام ١٦٤٣ وقد عمل خلالها قنصلا للفرسيين في دمياط وبعد موصلته الى فرنسا أصبح رجل دين ونشر كتابا عن رحلاته عام ١٦٨٦ م أوضح فيه مدى ضعف الدولة العثمانية وامكانية القضاء عليها وسافر خصيصا الى روما وعمل على اقناع البابا بضرورة تكوين الحملات الصليبية من جديد ولذلك فان كتابه الذي نشر حمل عنوان « الحرب الصليبية » (١٤٣) وقد حرص في كتابه على إثارة حماسة العالم المسيحي وأخذ يذكر الأوروبيين بأمجاد جودفري بويون وغيره ودعا الى اتحاد أوروبا ضد تركيا « وتحرير الشرق المسيحي منها » .

وقد اتسمت كتاباته عن مصر بالحق والكرامية فتارة يصف المصريين بأنهم وحوش وتارة بالأعداء ، وكراميته للإسلام واضحة

-- Ferrmanel : Op. Cit., PP. 14 --- 21.

(١٤٢)

— Le Guerre Sainte Relation des Coyages faits dans
turquie et la The'baide et la barbarie (١٤٣)

للفاية في كتاباته ولكن ترجع أهمية رحلته أنه قدم صورة للخلافات والصراعات القائمة بين الفناصل الفرنسيين في تلك الفترة (١٤٤) .

أما دى مكنونى Balthazar De Monconys فقد زار مصر عام ١٦٤٦ وكان يعمل ضابطا وينتمى لعائلة أفرادها ضباط ولكنها تهتم بالعلم اهتماما كبيرا فتلقى تعليمه في كليه الجزويت في ليون حيث تعلم اللغة العربية ولما كانت له اهتمامات بالفيزياء والكيمياء والرياضيات فقد أرسله والده الى أسبانيا لاتمام دراسته في إحدى الجامعات ، وعندما زار مونكونى مصر والشرق نشر نتائج رحلته عام ١٦٦٥ ولكنه سجل فيها حرصه على اجراء التجارب والاهتمام بالعلوم . وقد عين في أكاديمية باريس (١٤٥) حيث التقى بأشهر علماء فرنسا خلال هذه الفترة (١٤٦) وقد زار مونكونى أوروبا ورشح في بعثة دبلوماسية الى البابا اسكندر السابع في روما وزار بريطانيا والتقى بعلماء جامعة أوكسفورد (١٤٧) كما زار هولندا وألمانيا وعندما عاد الى فرنسا أسس في ليون أكاديمية الفيزياء وقد نشر مونكونى كتابا عن رحلته عام ١٦٦٥ وظهرت أولى الطباعات في ليون (١٤٨) ثم ظهرت

Coppin : Op Cit., PP. 5 — 7.

(١٤٤)

(١٤٥) عرف القرن السابع عشر في أوروبا بقرن أو عصر العبقريات لتطور العلوم والمخترعات فيه .

Sorbière — Pascal — Rcherval —

(١٤٦) عمل فيها كل من

Gassendi Thevenot — Justel وغيرهم من علماء فرنسا البارزين في القرن

السابع عشر .

Digby — Hobbes — Robert Boyle

(١٤٧)

Journal des Voyages de Monsieur Monconys

(١٤٨)

طبعة ثانية عام ١٦٦٦ ثم توالى الطباعات في باريس عام ١٦٧٧ وفي ليبزج ظهرت طبعة باللغة الألمانية عام ١٦٩٧ (١٤٩) .

ثم زار مصر بعض الرحالة الفرنسيين وان كانت كتبهم لم تحو معلومات وفيرة عن مصر ومن أشهر هؤلاء لى بوليه Laboullayes (١٥٠) الذى زار مصر عام ١٦٥٠ (١٥١) .

أما فى النصف الثانى من القرن السابع عشر فتعثر رحلة جان تيفينو من أهم الرحلات وكان تيفينو يعمل فى مكتبة ملك فرنسا وتعلم اللغة العربية فزار أوروبا وتركيا وسوريا وفارس والهند ثم زار مصر عام ١٦٥٧ ومكث فيها عامين حيث نزل فى ضيافة القنصل الفرنسى أونوريه دى بريمون . وترجع أهمية كتابات تيفينو الى أنها ألقت الضوء على بعض الاحتفالات فى مصر مثل احتفالات الخزنة - استقبال الباشا الجديد - الوظائف الرئيسية فى مصر فكان من أوائل الفرنسيين الذين تناولوا هذه الموضوعات وان كان قد غلبت على كتاباته روح التعصب والكراهية للمصريين (١٥٢) .

وأخيرا فقد شهدت مصر فى النصف الثانى من القرن السابع عشر قدوم اثنين من الرحالة هما دارفيو والأب فانزليب ولكن هذه الرحلات لم تكن فى أهمية رحلة تيفينو فالأول دارفيو زار

-
- Monconys, Baltazar : *Le Voyages en Egypte* 1546 (١٤٩)
1647. Le Caire 1971. PP. 2 — 11
- *Les Voyages et observation du Sieur Laboullaye* (١٥٠)
sur L'Egypte.
- Clément : *Op. Cit.*, P. 40. (١٥١)
- Thevenot, J : *Voyage de M.R. De Thevenot au* (١٥٢)
Levant Amsterdam troisieme edition 1672 Vol. III P. 381.

مصر عام ١٦٥٨ وهو فارس من مارسيليا أرسله كولبير لدى الباب العالي لإطلاق سراح العبيد الفرنسيين في تونس عام ١٦٦٨ وقد دعا في كتاباته لشن حروب صليبية على الدولة العثمانية وكانت له صلاته الوطيدة مع البابا أنوسنت الحادى عشر وقد نشرت رحلاته في القرن الثامن عشر ونشرها الأب لابا *Labat* عام ١٧٣٥ ، دون فيها دارفيو ملاحظاته عن الشرق أما ما يخص مصر فكان أجزاء بسيطة . وقد تأثر بكتابات مولير عندما ألف روايته الشهيرة *LeBourgeois Gentilhomme* (١٥٣) .

أما الأب فانزليب فلم يكن فرنسي الجنسية وإنما كان المانيا عمل في خدمة فرنسا أرسله كولبير في بعثة ودية الى الحبشة فمر على مصر وزارها عام ١٦٧٢ حيث تجول في صعيد مصر في جرجا وبنى سويف وحرص خلال رحلاته على شراء المخطوطات وقد نشرت رحلته عام ١٦٧٧ (١٥٤) بالتعاون مع الكاردينال *D'Estreés* في ليون (١٥٥) .

نلاحظ ان رحالة القرن السابع عشر كان من بينهم رجل الدين مثل الأب كوبلن ومنهم رجل السياسة مثل فرمنال عضو برلمان نورماندى ومنهم عالم فيزيائى مثل دى مونكونى وقد أعطانا هؤلاء الرحالة وصفا للمدن المصرية وثرواتها وأن كان البعض منهم قد استعمار العديد من ملاحظات رحالة القرن السادس عشر عن ثروات مصر وتميز رحالة القرن السابع عشر

-
- Carré : Op. Cit., P. 18. (١٥٣)
 - Nouvelle Relation en forme de Journal d'un voyage fait en Egypte Par Le P. Vansleb religieux Dominicain en 1672 — 1673. (١٥٤)
 - Carré : Op. Cit., P. 28. (١٥٥)

أنهم أعطونا فكرة عن الأوضاع السياسية في مصر والنزاع بين البكوات والباشا - والوظائف الهامة مثل الباشا - الصناجق - السباهية . الخ وبعض الاحتفالات مثل احتفالات سفر الخزنة أو استقبال باشا وقد وصفوا هذه الاحتفالات بدقة حتى أننا إذا قارناها بما ذكره الأمير أحمد الدمرداش في كتابه الدرة (١٥٦) المصانة لوجدنا تطابقا كبيرا ، خاصة وأن المؤلف ألف كتابه في النصف الثاني من القرن السابع عشر .

ويلاحظ أن رحالة القرن السابع عشر انصب اهتمامهم أيضا مثل رحالة القرن السادس عشر على مدن الوجه البحري وزيارة الأماكن المسيحية في سيناء - مصر القديمة - المطرية - الاسكندرية وإن كان البعض منهم قد زار بعض مدن الصعيد مثل كوبان الذي تجول في بنى سويف ولكنهم لم يعطونا فكرة واضحة ولا وصفا دقيقا لمدن الوجه القبلي وإنما اکتفوا بالتركيز على مدن الوجه البحري فقط .

(١٥٦) أحمد الدمرداش : الدرة المصانة . تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٩ .

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية في مصر كما صورها الرحالة الفرنسيون

- أولا - طبقات المجتمع
- ثانيا - الاحتفالات والأعياد
- ثالثا - المنشآت الاجتماعية

أولا - طبقات المجتمع المصرى :

فدم لنا الرحالة الفرنسيون وصفا لطبقات المجتمع المصرى وان كان هذا الوصف لا يخلو من التقصير وربما يرجع ذلك الى قصر المدة التى قضوها فى مصر ويمكن أن نجمل ما ذكره على النحو التالى .

فى عهد الدولة المملوكية :

ذكرنا من قبل أن تينو كان من أوائل الرحالة الذين زاروا مصر فى مطلع القرن السادس عشر أى فى عهد الغورى ، ولما كانت رحلته سريعة الى مصر وذات طابع سياسى كان وصفه للمجتمع المصرى متسما بالسرعة فاكتفى بتقديم وصف للغورى ومجلسه ، والماليك المحيطين به ، وذكر أنهم كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة ، وقدم لنا وصفا عن ملابسهم ورواتبهم وما يتقاضون من هدايا ومنح من السلطان (١٥٧) .

أما طومان باى آخر حكام دولة المماليك فقد تحدث عنه تيفيه فذكر « أنه لا يقل مكانة عن صلاح الدين » وأنه اتصف بالشجاعة والاقدام وبموته انتهت دولة المماليك ولمس من خلال كتابات تيفيه اعجابه الشديد بطومان باى (١٥٨) .

أما فى عهد الدولة العثمانية وبعد أن أصبحت مصر ولاية

Thenaud : Op. Cit., P. 40.

(١٥٧)

Thevet : Op. Cit., Universelle PP. 171 --- 180.

(١٥٨)

عثمانية نجد ان كتابات الرحالة الفرنسيين عنها لم تتناول بالتفصيل التقسيم الطبقي .

أكد الرحالة الفرنسيون أن الأتراك يمثلون الطبقة الحاكمة في مصر ، وعقدوا مقارنة بينهم وبين المصريين « سكان البلاد الأصليين » فوصفوا الأتراك بأن « لغتهم مختلفة عن لغة المصريين » « وهم معزولون عن باقي الطبقات » وقد « خصصت القلعة لسكنى الباشا ومعظم الأتراك يعيشون في المناطق المحيطة بها (١٥٩) .

وقارن تيفيه بين الأتراك وبين المصريين « سكان البلاد الأصليين » الذين وصفهم بأنهم « أفضل من الأتراك حيث تسهل معاشرتهم » (١٦٠) وجاء ما وصفه الرحالة الفرنسيون عن المصريين مطابقا لما ذكره ليو الأفريقي الذي وصف المصريين « انهم الطف من الأتراك الكسالى ، وهم مرحون لا يخلون بالكلمة الطيبة ، لا يصنعون الكثير من الاساءات كما هو مألوف في المدن الكبرى » (١٦١) .

أما مونكوني الذي زار مصر في القرن السابع عشر فقد وصف المصريين بأن لهم عادات جميلة متسامحون وتمنى أن تكون هذه العادات بين المسيحيين « فهم بلا ضفينة ليس لديهم رغبة في الانتقام ، تنتهي خلافاتهم بانتهاء اليوم يحرسون على تنفيذ العدالة والقضاء ولا يجبرون المسيحي أن يكون تركيا « أى أن يكون مسلما ، « رسولهم محمد ولكنهم يجلسون ويحترمون عمر وعلى « وعلى حد تعبيرهم فهم عبيد للأتراك (١٦٢) .

Palerne : Op. Cit., P. 42.

(١٥٩)

(١٦٠) ليو الأفريقي : المرجع السابق ص ٥٩١ .

(١٦١)

Monconys : Op. Cit., P. 56.

(١٦٢)

بينما نجد أن تيفنو الذى غلب على كتابته الكراهية للإسلام
والمصريين قد وصفهم قائلا « ان أرض مصر جنة ولكن يسكنها
الشياطين سكانها يتصفون باللؤم والكسل والجبن وحب جمع
المال » (١٦٢) وقد انفرد تيفنو دون غيره من رحالة القرنين
١٦ ، ١٧ بهذا الوصف وذكر كوبان « بان المرء عندما يشعر بالضجر
من سكان القاهرة فانه يطلق عليهم فراعنة » (١٦٤) .

أما عن الطبقة الحاكمة في مصر فعلى رأسها الباشا التركى
وقد اكتفى رحالة القرن السادس عشر بذكر أن الباشا هو حاكم
البلاد أما في القرن السابع عشر فقد ذكر مونكونى « ان الباشا
هو حاكم القاهرة له سلطات مطلقة فله حق الاعدام دون سماع
الدفاع » (١٦٥) وذكر كوبان أن الديوان يعقده الباشا في القلعة
ثلاث مرات أسبوعيا ، والباشا يحضر الاحتفالات الهامة والدينية
مثل احتفالات المحمل ورمضان وسفر الخزنة الى استانبول وفتح
الخليج وهو لا يحصل على منصبه بسهولة لأن عليه رشوة
الوزراء في الاستانة لكي يعين في وظيفته (١٦٦) .

أما المماليك فقد شكلوا طبقة متميزة في مصر حتى بعد أن
أصبحت تابعة للدولة العثمانية وقد اهتم تيفيه بتوضيح كيفية
انهيار دولة المماليك وسرد المعارك التى دارت بينهم وبين سليم
الى أن اضطروا للاستسلام . وعندما شق طومان باى عام ١٥١٧
خرج المماليك يطلبون الرحمة من سليم وهم يصيحون « أرحم
عبيدك الضعفاء » كذلك أبدى استيائه من حرق سليم القاهرة

Thevenot . Op. Cit., P. 399.

(١٦٣)

Coppin : Op Cit., P. 61.

(١٦٤)

Monconys ' Op. Cit., P. 58.

(١٦٥)

Coppin : Op. Cit., PP. 93 --- 95.

(١٦٦)

لأن القائد يونس باشا قذفه أحد الأهالي بحجر في رأسه (١٦٧) .
« وقد شغل المماليك الوظائف العسكرية الهامة ولكنهم لم يختلطوا
بالمصريين شأنهم في ذلك شأن العثمانيين » (١٦٨) .

وقد قارن بيلون بينهم وبين المصريين والأتراك فكانت كفة
المصريين هي الأرجح حيث ذكر « ان المصريين أفضل من المماليك
لأنهم يتميزون بخفة الظل والمرح » (١٦٩) .

وقد هادن السلاطين العثمانيون المماليك خوفا من قيام
الثورات في بلاد بعيدة عن استانبول . وترجع أصول المماليك الى
القوقاز والبحر الأسود وتلقوا تدريبا عسكريا وقد قتل منهم
السلطان سليم أعدادا كبيرة عند فتحه لمصر ولكن سليمان هادنه
وسمح لهم بالاحتفاظ بامتيازاتهم وهم يشكلون طبقة عسكرية
ومنها من يدير الأقاليم (١٧٠) ومنهم من يعمل كاشفا وقد عهد
الى البعض منهم بادارة مائة أو مائة وخمسين قرية يأخذون
عائدها ولا يدفعون للباشا الا المبلغ المقرر فقط (١٧١) .

هذا ويعاون الانكشارية الباشا في الحكم وقد قدم بيلون
وصفا دقيقا عن أسلحتهم وملابسهم (١٧٢) وذكر تيفيه أنهم
« ركيزة الباشا في الحكم » . والانكشارية أفراد يتم أسرهم في
سن الطفولة وقد شكلوا القوة الأولى في خدمة السلطان
والدولة (١٧٣) . « وهم يتميزون بالنظافة ، ثيابهم نظيفة يتسلحون

Thevet : Op. Cit., PP. 171 --- 175.

(١٦٧)

Ibid : P. 178.

(١٦٨)

Belon : Op. Cit., 108 b

(١٦٩)

Coppin : Op. Cit., PP. 83 --- 85.

(١٧٠)

Fernand : Op. Cit., P. 25.

(١٧١)

Belon : Op. Cit., 113 b

(١٧٢)

Thevet : Op. Cit., P. 178,

(١٧٣)

بأسلحة جميلة حريصون على أداء الفرائض الدينية « (١٧٤)
أما السباهية فرسان لهم نفس ملابس الانكشارية ولكنهم يتميزون
ببراعتهم في فنون القتال وركوب الخيل (١٧٥) .

وعلى رأس كل مدينة أغا يتولى ادارتها ويعين من قبل
الباشا (١٧٦) يعاونه الجنود . وقد ذكر كوبان بعض الوظائف مثل
الدفتردار وذكر أنها وظيفة مالية - أمير الحج وهو رئيس القافلة،
شيخ البلد هو الحاكم الحقيقي في البلاد (١٧٧) .

وهكذا نلاحظ أن الرحالة خلال القرنين ١٦ ، ١٧ اعتبروا
الأتراك والماليك هم الطبقة الحاكمة والمتفردة في مصر وأن كان
رحالة القرن السابع عشر قد ذكروا بعض الوظائف المخصصة
لهذه الطبقة مؤكدين أن المناصب الهامة العسكرية أو الادارية
انما هي من نصيب الطبقة الحاكمة فقط . « فحتى الجيش كان
بحرم على المصريين العمل فيه » (١٧٨) .

أما عن طبقة العلماء خاصة علماء الأزهر والقضاة والفقهاء
فلم يتعرض الرحالة للحديث عنها ، وإنما تحدثوا عن الطرق
الصوفية وخاصة الطريقة البكداشية التي انتشرت في مصر
وقدموا وصفا للدراويش وعابوا عليهم ملابسهم الرثة بل خلط
بالرن في القرن السادس عشر بين الدراويش وعلماء الدين فلم
يستطع تحديد الفرق بينهم « وذكر أن الدراويش يمثلون طبقة

Coppin : Op. Cit., P. 131.

(١٧٤)

Ibid : P. 134.

(١٧٥)

Monconys : Op. Cit., P. 56.

(١٧٦)

Coppin : Op. Cit., P. 151.

(١٧٧)

Ibid : P. 135.

(١٧٨)

علماء الدين » (١٧٩) . غير ان الاختلاف قد وضح في القرن السابع عشر بل نجد أن فرمنال يشيد بدور الأزهر كمؤسسة وجامعة تعليمية وهو يعتبر الرحالة الوحيد الذي ألقى الضوء على الأزهر وطلابه فذكر « ان التلاميذ يدرسون فيه الطب والفلك والفلسفة وانه لا بد من توقيع الكشف الطبي على الطلاب قبل انتسابهم اليه ويسمح لأهاليهم بالزيارة » والأزهر من أجمل جامعات العالم وبه اعداد كبيرة وهائلة من الكتب ويعاب على علمائه عدم استخدام المطبعة فما زالوا ينسخون الكتب وقد استطاع فرمنال دخول الأزهر لمدة ساعتين وسمح له برؤية الطلاب وتقابل مع بعض علماء الأزهر وأكد لهم اعجابه بهم وذكر « أنهم يكرهون الأتراك » (١٨٠) .

أما الدراويش فقد أدرك فرمنال الاختلاف الواضح بينهم وبين علماء الأزهر فذكر « أن الدراويش يتواجدون بأعداد كبيرة في المدن المصرية ولكن عددهم كبير في مدينة القاهرة والبعض منهم يرتدى جلود النمر أو الأسود وأحزمة من جلد الثعابين وملابسهم غريبة والبعض منهم يضع خبزاً وسكراً فوق رأسه ويرتدى الریش الملون ولهم زعيم يطلق صغيراً مميزاً يتجمعون أو يتفرقون عند سماعه » (١٨١) . وقد ذكر مونكوني أنه رأى بعض الدراويش يرقصون « دون كلل أو تعب ويضعون أوراق الزهور الزائلة فوق رؤوسهم » (١٨٢) .

ولقد أفاض الرحالة الفرنسيون في وصف أحوال طبقة الفلاحين فقد استرعت انتباههم بفقرهم وبؤس معيشتهم وقد

Palerne : Op. Cit., PP. 85 --- 90.

(١٧٩)

Fernanel : Op. Cit., PP. 85 --- 90.

(١٨٠)

Ibid : PP. 53 --- 54.

(١٨١)

Monconys : Op. Cit., P. 7.

(١٨٢)

وصفوا الفلاحين « بأنهم سسود البشرة من جراء تعرضهم للشمس » (١٨٣) وتعجب بيلون من أن هذه الطبقة رغم أنها من أكبر طبقات المجتمع حجما إلا أنها أقلها امتيازاً « فملابسهم رثة يعيشون في منازل من الطوب النىء ، غذاؤهم بسيط من الحبوب تزداد مصائبهم في حالات الفيضان أو تشريق الأراضى فيضطرون الى الهجرة من أراضيهـم والاقامة في المناطق والتلال المرتفعة واكد بيلون أنه « لا يمكن مقارنة الفلاحين بأوضاعهم المتردية بطبقة الأتراك أو المماليك » (١٨٤) ، فهم يتعرضون للعديد من المجاعات وذكر فيلامون أنهم اضطروا لأكل سيد قسطة في دمياط بسبب انتشار المجاعة .

ومن الطرائف التى ذكرها شسنو وانفرد بذكرها « أن أطفال الفلاحين يظلوا عرايا لا يرتدون ملابس حتى يبلغوا سن العاشرة » (١٨٥) .

البسـدو :

يسكنون الجبال والصحراء ولا توجد لديهم زراعة ولا منازل شبههم تيفيه « بالتتار » يعيشون في خيام حياتهم قاسية « لا ينتمون لبشر » « متوحشون » وتعجب انه « على الرغم من تبعيتهم للأتراك إلا أنهم لا يخشونهم » فاذا وقع تركى فى أيديهم سارعوا بذبحه ، اذا القوا القبض على مسيحي أو أرمنى أو يونانى فانهم يكتفون بسلب أمواله ثم يجردونه من ملابسه ، واكد « أنهم

Chesneau : Op. Cit., P. 28.

(١٨٣)

Belon : Op. Cit., P 99 b --- 105 a

(١٨٤)

Villamont : Op. Cit., P. 180.

(١٨٥)

رغم كراهيتهم للأتراك الا أنهم يدفعون لهم الضرائب عن كل ما يملكونه من جمال وماعز » (١٨٦) .

وقد ذكر بالرن أن البدو لا يذهبون الى المساجد ولا يحرسون على أداء الصلاة مثل المصريين والأتراك « ولا يهتمون سوى برعى ماشيتهم » (١٨٧) وهم يتنقلون من مكان لآخر بحثا عن الماء وكل ما يملكون من متاع يضعونه على ظهر الأبل وهم « مساكين وتعساء » على حد وصف بالرن لهم (١٨٨) .

وقد وصفهم كوبان في القرن السابع عشر بأنهم يعيشون في بؤس وشقاء وهم متشردون ، وقارن بينهم وبين بدو الشام فأكد أن بدو مصر أسوأ حالا لأن بدو سوريا يتاجرون مع التجار ويبيعون الصابون والأعشاب حتى أنهم يصدرونها الى طولون ومارسيليا بينما بدو مصر لا يتاجرون في شيء (١٨٩) « ورغم أنهم تابعون للأتراك الا أنهم لا يخضعون لهم » (١٩٠) .

أهل الذمة :

أما عن أهل الذمة فقد ذكر الرحالة الفرنسيون أنه من السهل التعرف عليهم وذلك لأن ملابسهم مختلفة عن ملابس الأتراك يرتدون ملابس من اللون الأزرق أما اليهود فيلبسون اللون الأصفر (١٩١) ويعمل الأقباط في الوظائف المالية والإدارية

Thevet : Op. Cit., Universelle PP. 146 --- 149.	(١٨٦)
Palerne : Op. Cit., PP. 54 --- 55.	(١٨٧)
Ibid : P. 126.	(١٨٨)
Coppin : Op. Cit., P. 36.	(١٨٩)
Monconys : Op. Cit., P. 53.	(١٩٠)
Ibid : P. 135.	(١٩١)

ومذهبهم « ارثوذكسى » « ونادرا ما يقتربون الجرائم لأنهم يخشون العقوبات » وبعض كنائسهم مهملة غير نظيفة يكثر بها اللواطيط « وأدوات رجال الدين من الخشب حتى لا تنكسر وشكل البطريك أفضل من غيره من القساوسة لأنهم لا يعتنون بأنفسهم كثيرا » (١٩٢) .

اليهود :

وكانوا يعملون في الجمارك خاصة جمرك بولاق وقد اعتنق الكثيرون منهم الاسلام وقد علل تيفيه ذلك « بالرغبة في الحصول على مكاسب تجارية وحرية أكثر في الحركة ، ولكنهم سرعان ما يرددون الى دينهم » (١٩٢) وقد القى تيفيه اللوم على اليهود لأنهم لعبوا دورا في تسليم القسطنطينية الى الأتراك العثمانيين فقد تظاهروا باعتناق المسيحية وخانوا الامبراطور وكذلك أكد أن الخيانة من صفاتهم فهم المسئولون عن استيلاء العثمانيين على كثير من مناطق أوروبا مثل رودوس وناپولى وبلجراد وبودابست (١٩٤) .

واليهود متواجدون في جميع المدن المصرية كالاستنبرية ، دمياط ، رشيد « ولا تخلوا مدينة منهم » (١٩١) وفي القاهرة يعمل الكثيرون منهم في خان الخليلي (١٩٦) وقد قدر تينو اعداد اليهود في مصر بعشرة آلاف ، ولهم منازلهم الخاصة ومتاجرهم وقيمون في حارة اليهود قرب الموسكى (١٩٧) وهم متمسكون بالتوراة

Thevet : Op. Cit., Universelle p. 180.

(١٩٢)

Ibid : P. 185.

(١٩٣)

Ibid : P. 182.

(١٩٤)

Belon : Op. Cit., 98 ba.

(١٩٥)

Palerne : Op. Cit., P. 64.

(١ ٦)

Thenaud : Op. Cit., P. 50.

(١٩٧)

والتلمود وقد وصفهم مونكونى بأنهم « لا يتكلمون الا كلاما فارغا
ويقصون المئات من القصص من التلمود كلها تتسم بالسذاجة »
لهم احتفالاتهم الخاصة ويستخدمون أحيانا اللغة العبرية في
الكتابة (١٩٨) .

وللأقباط حارات خاصة بهم وقدر تينو عددهم في القاهرة
بعشرة آلاف وفي مصر اعداد كبيرة من اليعاقبة والسرين (١٩٩)
ويتركز الأقباط في المناطق مثل مصر القديمة (٢٠٠) .

أما عن طبقة التجار فقد سجل تينو ملاحظة طريفة وهي
« ان التجار المصريين يتمتعون بشراء كبير ولكنهم يخفون هذا
الثراء خوفا من السلطات المصرية » (٢٠١) وهم يتاجرون في مختلف
أنواع البضائع من ملابس وطباق وحبوب وبهارات وأسلحة
وحلى (٢٠٢) .

وقد أكد فيلامون انتماش التجارة في المدن المصرية وفي
القاهرة وذلك لأنها كانت لها علاقاتها التجارية الوطيدة مع آسيا
وأفريقيا وأوروبا والهند ، وأكد ازدهام القاهرة بأعداد كبيرة من
التجار وأن العمليات التجارية تتركز في « أحياء الغورية وخان
الخليلى » الذى تعرض فيه البضائع الهندية من الروائح والمسك
والعنبر (٢٠٣) أما الغورية فتعرض فيها السجاجيد التركية
والملايس القطنية ومنتجات تركيا وفارس والهند (٢٠٤) .

Monconys : Op. Cit., P. 151.

(١٩٨)

Thenaud : Op. Cit., P. 50.

(١٩٩)

Thevet : Op. Cit., P. 455.

(٢٠٠)

Thenaud : Op. Cit., P. 40.

(٢٠١)

Thevet : Op. Cit., Levant P.14.

(٢٠٢)

Villamont : Op. Cit., P. 192.

(٢٠٣)

Palerne : Op. Cit., P. 42.

(٢٠٤)

هذا وقد ركز الرحالة الفرنسيون حديثهم عن الجاليات الأوروبية وخاصة الفرنسية . التى يقوم أفرادها بالتجارة . وقد ذكر الرحالة أهم المنتجات التى يحصل عليها الفرنسيون من مصر مثل القطن ، الجلود ، الأرز ، العقاقير الطبية ، ريش النعام ، ولما كان بيلون عالما طبيعيا فقد اهتم بذكر أنواع العقاقير الطبية والنباتات والأعشاب المختلفة فى محلات العطارة مثل السنط والنترات (٢٠٥) أما ما يبيعه التجار الفرنسيون فى مصر فقد ذكر دارفيو بأنه قليل ولكن أغلبه من منتجات الجوز من نورماندى وبروفانس (٢٠٦) .

وقد واجهت الفرنسيين بعض المصاعب مثل اغارات القراصنة وسوء تنظيم الاسكالة المصرية ومنازعات القناصل - بالإضافة الى دفع الجمارك فى الاسكندرية - وبولاى - كذلك تعرض التجارة لاغارات البدو فى الطريق من رشيد الى القاهرة فقد شكى كويان من تعرضه للسرقة . بالإضافة الى الغرامات التى كانت تفرض على التجار وعلى القناصل أنفسهم فالقنصل الفرنسى دانطوان تعرض للسجن كذلك انوربه دى بريمون وكويان نفسه سجن عندما كان يعمل نائبا للقنصل فى دمياط (٢٠٧) .

وقد قدم لنا تيغيه وصفا لموكب من التجار الأجانب أثناء ذهابهم الى القلعة لمقابلة الباشا فتحركوا « فى صحبة عدد من الأقزام القادمين من النوبة والسودان واخذ هؤلاء الأقزام ينظمون خط سير التجار وهم ينشدون الأغاني وكان البعض منهم يمتطى

Belon : Op. Cit., 113 b.
Clément : Op. Cit., P. 48.
Coppin : Op. Cit., P. 259.

(٢٠٥)
(٢٠٦)
(٢٠٧)

ظهر الماعز بدلا من الخيول وقد أحسن الباشا استقبال التجار الأجانب » (٢٠٨) .

وقد خصصت في القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد خانات للتجار الفرنسيين (٢٠٩) ومن الجاليات التي جاء ذكرها المغاربة (٢١٠) الذين لعبوا دورا هاما في التجارة الداخلية والخارجية وأصبح لهم العديد من الوكالات التجارية (٢١١) .

طبقة أرباب الحرف :

عدد الرحالة الفرنسيون العديد من الحرف في المدن المصرية ومن أهمها السقاية وقد كثر عدد أفرادها في القاهرة التي بنيت بعيدة عن النيل فكان لابد من توصيل مياه النيل الى المنازل والحمامات وكان السقاؤون يحملون قربا من الجلد الأصفر يعلقونها في رقبتهم (٢١٢) وذكر ليو الافريقى أن السقائين كانوا يستخدمون الجمال لنقل المياه الى أرجاء القاهرة « وغالبا ما تكون هذه القرب مزينة مزخرفة مجهزة بأنبوبة من النحاس الأصفر » (٢١٣) .

وعدد فيلامون أنواعا أخرى من الحرف مثل الحدادين والسروجية وصناع الغزل والنسيج وصناع النحاس وأكد أن

Thevet : Op. Cit., Levant P. 13.

(٢٠٨)

Palerne : Op. Cit., P. 6.

(٢٠٩)

(٢١٠)

(٢١١) لمزيد من التفاصيل عن دور الحالية المغربية انظر عبد الرحيم

عبد الرحمن .

المغاربة في مصر في العصر العثماني ١٥١٧ - ١٧٩٨ - تونس ١٩٨٢ .

(٢١٣) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٥٩٢ .

سليم الاول عندما فتح القاهرة اصطحب معه أثناء عودته الى
استانبول العديد من الصناع المصريين (٢١٤) .

ولفت نظر كوبيين الحلاقون فذكر أن « البعض منهم يعمل
في الشارع والبعض الآخر لهم محلات خاصة بهم » وأنهم
يستخدمون قطعة من الجلد لسن موسى الحلاقة وأن الأحواض
التي يستخدمونها في محلاتهم مصنوعة من النحاس وحجمها أكبر
من المستخدمة في فرنسا ، وأن الحلاقين يقومون ببعض الأعمال
التي اعتبرها اضافية مثل تنظيف الأذن وقص الأظافر (٢١٥) .

أما حرفة تفريخ البيض فما من رحالة زار مصر الا وذكرها
مع إعجابه الشديد بمهارة المصريين في هذه الصناعة حيث يتم
وضع البيض في فرن متعدد الطوابق يكون الطابق الأخير مثقوبا
ويتم اشعال نار هادئة لمدة أسبوع فيبدأ بعد ذلك التفقيس
وتخرج الفراخ الصغيرة بأعداد كبيرة وقد ذكر ييلون انه لا أحد
يفوق المصريين في هذه الصناعة (٢١٦) وأكد الحسن بن الوزان بأن
« الحكومة المصرية تفرض الضرائب على هذه الصناعة » (٢١٦)
وذكر فرمنال « أن الفراخ الصغيرة يخصص البعض منها للباشا
ويخصص جزء آخر للعاملين في الأفران وجزء يخصص لمن يقومون
بجمع البيض والفلاحون ملزمون بتقديم الثلثين من بيض دجاجهم
كل خمسة أشهر الى القاهرة التي يوجد بها خمسة وعشرون فرنا
ويتم التفقيس في شهرى ابريل ومايو » (٢١٨) .

Copplin : Op. Cit., P. 142.

(٢١٤)

Belon : Op. Cit., 102 a.

(٢١٥)

(٢١٦)

Fernandel : Op. Cit., P. 69.

(٢١٧)

(٢١٨)

أما حرفة الصيد فأصحابها منتشرون على طول مجرى النيل ولهم مراكب خاصة بهم ولكن أعداد الصيادين تتزايد في المدن الساحلية خاصة رشيد التي يعتبر الصيد فيها الحرفة الرئيسية للسكان « فلا عمل آخر لهم سوى الصيد » (٢١٩) .

وقد وجد في القاهرة أعداد كبيرة من الباعة الجائلين يبيعون الفواكه واللحم المشوى والجبن « يصعب السير في شوارع القاهرة بسبب هؤلاء الباعة الذين يندفعون في الطرقات ويصرخون على بضاعتهم ويصيحون في المسارة « ظهرك » لكي يحذروهم بالابتعاد عن الطريق (٢٢٠) .

والطبقة الأخيرة هي طبقة الرقيق التي قدرها تيفيه بثلاثين ألف عبد معظمهم من المسيحيين ، وأكد أن « الرق غير قاصر على الأتراك فهو موجود أيضا في البلاد المسيحية خاصة في البرتغال » (٢٢١) وقد شاهد بالرن « أعدادا كبيرة من الرقيق الإفريقي في سوق خان الخليلى وذكر أنه تم أسرهم من حدود أراضى القس جون » (٢٢٢) « ويقوم التاجر بتنظيفهم قبل عرضهم في الأسواق ويترك الرجال عرايا بينما يسمح للنساء بارتداء الملابس ومن حق المشتري أن يطلب منهن الرقص والغناء والكشف عن أسنانهم وقد استخدم المصريون الرقيق للعمل في المنازل وعاملوهم معاملة طيبة » (٢٢٣) .

هذا فضلا عن اهتمام الرحالة الفرنسيين بالحديث عن

Belon : Op. Cit., 99 a.	(٢١٩)
Villamont : Op. Cit., P. 186.	(٢٢٠)
Thevet : Op. Cit., Levant P. 14.	(٢٢١)
(٢٢٢) من اليوبيا .	
Palerne : Op. Cit., P. 51.	(٢٢٣)

طبقات المجتمع المصرى الا أننا نلاحظ أن البعض منهم خاصة في القرن السادس عشر قد أولى اهتماما بجماعات الفجر فذكر تيفيه أنه شاهد أعدادا كبيرة من الفجر في القاهرة وأرجع أصولهم الى آسيا وأوروبا وأكد « أن لهم لهجات ولغات وصلات مشتركة مع فجر اليونان والبعض منهم من كروفو وكريت وقبرص (٢٢٤) وأكد بيلون أن جماعات الفجر التي شاهدها في مصر تنتمي « لأصول من ولاشيا وملدافيا » (٢٢٥) « وهم يقرأون الطالع ويعملون بالحدادة ويعيشون على السحر والشعوذة والسرقه وهم لا ينتمون للمصريين ومعظمهم مسيحيون ولكنهم تابعون للأتراك » وقد وجد تيفيه أعدادا كبيرة منهم في القاهرة حول أسوار القلعة وعند الأهرام وأكد أن لهم حرية التجول في المدن المصرية (٢٢٦) ، بينما وجد بيلون أعدادا كبيرة منهم في المطرية وعلى ضفاف النيل وفي القرى المصرية (٢٢٧) وذكر تيفيه أن العرب يطلقون على الفجر لفظ « حرامى » (٢٢٨) .

ثانيا - الاحتفالات والأعياد :

« لا توجد أمة متمسكة بتقاليدها وتراثها مثل الأمة المصرية » هذا ما ذكره بيلون عن اهتمام المصريين للاحتفالات والأعياد (٢٢٩) ومن أهم هذه الاحتفالات :

Falerno : Op. Cit., Universselle P. 106.

(٢٢٤)

رومانيا الحالية .

Thevet : Op. Cit , P. 105

(٢٢٥)

Belon : Op. Cit., 112 b.

(٢٢٦)

Thevet : Op. Cit., P. 125.

(٢٢٧)

Belon : Op. Cit., 101.

(٢٢٨)

(٢٢٩)

الزواج :

ذكر بالرن أن للرجل الحق في الزواج من أربع نساء بالإضافة إلى الجوارى ، وقد اختلط الأمر عليه فذكر أن الرجل يدفع لوالد العروس مبلغا من المال « لشرائها » وأكد أن الرجال في مصر يسيطرون على النساء والعبيد « كما هو الحال في إسبانيا والبندقية » (٢٣٠) .

وعند الاحتفال بالزواج تقوم النساء « بتلوين » تخضيب أيديهن وأرجلهن بالحناء (٢٣١) وتطلق الزغاريد . ووصف بيلون النساء اللاتي يطلقن الزغاريد طوال العرس قائلا تفتح المرأة فمها إلى أقصى اتساع فتنبعث أصوات غريبة وتحرك لسانها بين أسنانها ثم تسحب إلى الخلف فتنتطق الأصوات الغريبة « (٢٣٢) .

ومن الطرائف التي كتبت عن إعجاب الرجل بالمرأة في مصر خاصة إعجاب الأتراك ما ذكره فيلامون من أنه « إذا أعجب التركي بامرأة تركية فإنه يبحث عن وسيلة ليرأها وغالبا ما تكون على أسطح المنازل حيث يتبادلان الإشارات فإذا قامت السيدة من مجلسها ووقفت ووضعت يديها على جانبيها فهذا دليل موافقتها » (٢٣٣) .

السبوع :

أكد بيلون أن النساء في مصر يتمتعن بخصوبة عالية فهن « يلدن ما لا يقل عن ثمانية أطفال » وأورد قصة ذكرها المؤرخ

Palerne W Op. Cit., P. 77.

Belon : Op. Cit., 104 a

Ibid :

Villamont . Op. Cit., P. 218.

(٢٣٠)

(٢٣١)

(٢٣٢)

(٢٣٣)

بلىنى فيها الكثير من المبالغات أكد فيها بلىنى أنه رأى سيدة مصرية وقد وضعت سبعة توائم دفعة واحدة ومن الطرائف التى أكدها بليون أن النساء فى مصر « يلدن فى الشهر الثامن » وعلل ذلك بسبب حرارة الطقس والرطوبة (٢٣٤) .

وبعد ولادة الطفل بأسبوع « يقام له حفل كبير » يطلقون فيه على المولود اسما ويقام الحفل على ضوء الشموع ويتم أعداد الولائم فى هذا اليوم (٢٣٥) .

أما ختان الطفل فأحيانا يتم بعد الولادة مباشرة وفى المنازل وأحيانا عندما يبلغ الطفل اثنى عشر عاما . وأكد بالرن أن عملية الختان « لا تتم فى المساجد وإنما فى المنازل » ثم تدق الطبول فى الشارع وتشر الزهور ويقدم الطعام ، وإذا كان الطفل من عائلة ذات شأن ونفوذ فانه يمتطى حصانا حتى المسجد وأكد بالرن بانه لو اعتنق الاسلام شخص مسيحي فلا بد وأن تجرى له نفس المراسم السابقة (٢٣٦) « فالختان واجب على الأقباط فى مصر » وذكر فرمنال « أنه لو وقع قبطى فى يد العرب فانهم يجبرونه على الختان حتى ولو فى سن كبيرة ويقال انهم يختمون من يمتنع عن القيام بهذه العملية بحديد ساخن على رقبته » (٢٣٧) ولتخفيف الألم عن الأطفال أثناء عملية الختان « يتم وضع قطعة من السكر فى أفواههم لمنعهم من الصراخ » (٢٣٨) .

Belon : Op. Cit., 104 a.

(٢٣٤)

Palerne : Op. Ctl., 178.

(٢٣٥)

Ibid : P. 178.

(٢٣٦)

Fermanel : Op. Cit., P. 73.

(٢٣٧)

Monconys : Op. Cit., P. 265.

(٢٣٨)

ومن أجمل الاحتفالات التي شهدها الرحالة الفرنسيون
موكب المحمل حيث تسير القوافل "تجهة الى « الأماكن المقدسة »
من القاهرة الى الحجاز وتزين جمال القافلة بمختلف الزينات
للسفر الى الحجاز والأخطار التي تتعرض لها ومهاجمة البدو
وقد خصص بالرن فصلا بأكمله للحديث عن استعداد القافلة
للقافلة ، ولذلك توفر الحراسة المسلحة للقوافل (٢٣٩) وأكد تينو
أن المسافة من مصر الى الأماكن المقدسة تستغرق حوالي
« خمسين يوما » (٢٤٠) .

ويحضر احتفال سفر القافلة الى الحجاز الباشا والقضاة
وكبار رجال الدولة ويخرج المحمل من القلعة ويضم ٥٠٠ جمل
بقيادة أمير الحج وعددا كبيرا من الجنود الانكشارية والعزبان
وتحمل الجمال المياه والخيام والخدم وتدق الطبول أثناء سير
المحمل (٢٤١) وبعد عودة الحجاج يتم تزيين منازلهم وتقام
الولائم (٢٤٢) .

ومن الاحتفالات الشيقة ختم القرآن الكريم فبعد أن يحفظ
الطفل القرآن يقام له حفل كبير يلبس الطفل ملابس من الحرير
وعمامة جميلة ويركب حصانا مزيئا ويمر موكب الطفل في شوارع
المدينة وتدق الطبول ويسير خلف الموكب عدد كبير من الناس
« لانهم يتبركون بالطفل حافظ القرآن » (٢٤٣) .

Palerne : Op. Cit., P. 120.

(٢٣٩)

Thenaud : Op. Cit., P. 37.

(٢٤٠)

Coppin : Op. Cit., P. 605.

(٢٤١)

Palerne : Op. Cit., P. 120.

(٢٤٢)

Coppin : Op. Cit., P. 143.

(٢٤٣)

أما احتفال فتح الخليج فكان من أهم الاحتفالات وقد ارتبط بفيضان النيل ويحضره الباشا الذى يسير في موكب مع كبار الشخصيات ويضرب الباشا بالفأس في جدار الخليج 'فيتدفق' الماء . وتستمر الاحتفالات سبعة أيام (٢٤٤) . وتقام الاحتفالات في جزيرة الروضة ويسهر سكان القاهرة ويتزهون في المراكب النيلية وهم يشعلون المصابيح وينشدون الأغاني ويتوافد على الروضة الصناع والحواة « أصحاب جلا جلا » « ويفطس الأطفال في النيل وهم عرايا » ويحرص الممالك على حضور الاحتفال فيحضرون في مواكب كبيرة مزينة بالأعلام الملونة ومنهم من يقيم معسكرا على البر لاستقبال الزوار ولا تقتصر الاحتفالات على الروضة فقط وإنما تقام الاحتفالات في الأركية حيث تمتلئ البركة بالمياه فتسير المراكب فيها (٢٤٥) .

وقد سجل رحالة القرن السابع عشر احتفالات قدوم الباشا الجديد وجاء ما ذكره مطابقا الى حد كبير لما ذكره الأمير أحمد الدمرداش في كتابه « الدرة المصانة » فذكر كوبان بأن « الاحتفالات تقام لاستقبال الباشا الجديد سواء إكان قادم من البر أو البحر » فإذا كان قادم من البحر أى من بلاد الشام يتم استقبله بواسطة كبار الشخصيات ويقام له معسكر كبير وتُنصب الخيام الزاهية الألوان وتفرش أرضيتها بالسجاجيد الثمينة ويقيم أثرياء الممالك المآدب والولائم ويصحب في هذا اليوم احصاء أعداد الدجاج والأغنام والأبقار التى يتم طهيها ويدخل الباشا القاهرة وقد احتشد حوله الممالك والسباهية والبكوات (٢٤٦) .

Palerne : Op. Cit., P. 52.

(٢٤٤)

Coppin : Op. Cit., PP. 74 --- 78.

(٢٤٥)

Coppin : Op. Cit., PP. 93 --- 95.

(٢٤٦)

أما أحمد الدمرداش فقد أضاف بأنه في حالة قدوم الباشا برا يقام معسكر في الخانكة فيقضى الليلة الأولى فيه ثم يذهب لزيارة الامام الشافعى ويبيت في العادلية وفي الصباح يدخل القاهرة (٢٤٧) .

أما في حالة قدوم الباشا بحرا « فيكون استقباله في الاسكندرية كتحدا الجاويشية وباش جاويشية والملازمين ثم يذهب الى رشيد ليزور الاولياء الصالحين ويمكث عدة ايام ثم ينزل بواسطة السفن الى القاهرة فيصل الوراق ويبيت ليلة وفي الصباح يعد له سناجق مصر وباقي الأغوات فيهنئون بسلامة الوصول ثم يعبرون به النيل الى البر الشرقى فينزل في قصر الحلبي ببولاق » (٢٤٨) وقد قدم لنا فرمنال وصفا لموكب الباشا في بولاق « وانه كان في استقباله حوالى ٢٥٠٠ من الخيول المزينة واعداد كبيرة من الجمال المزينة بالفضة اما حصان الباشا فكان في أجمل زينة وقد أقيمت له المآدب في بولاق » (٢٤٩) .

ولم تقتصر ملاحظات الفرنسيين على احتفالات تولية باشا جديد لمصر وانما ذكروا أيضا كيفية عزل الباشا فذكر تيفنو أنه شاهد عام ١٦٥٧ عزل باشا من مصر « حضر مندوب من قبل السلطان واجتمع بالبكوات في ديوان القلعة ثم رمى الأوراق في ركن الديوان وكأن هذا يعنى عزل الباشا » « فأخذ المماليك يحاسبون الباشا واستردوا الأموال التى أخذها منهم » وقد خرج

(٢٤٧) أحمد الدمرداش : المرجع السابق . تحقيق عبد الرحيم

عبد الرحمن ص ز .

(٢٤٨) المرجع السابق ص

(٢٤٩)

Fermandel : Op. Cit., P. 95.

الباشا من مصر بصحبة المماليك وحزن القنصل الفرنسى بريمون
لعزله لأنه كان صديقا له (٢٥٠) .

وأكد كويين أن العلاقة كانت تسوء أحيانا بين الباشا
والمماليك فكانوا يرأسلون السلطان ويبعثون اليه بمندوب عنهم
« ويقدمون الرشاوى للوزراء فى استانبول » لاقناع السلطان
بتعيين باشا جديد (٢٥١) .

ومن الاحتفالات التى انفرد تيفينو بذكرها احتفال سفر
الخزنة الى الآستانة فى يوم الاحتفال ينزل الباشا من القلعة
ويرسل ١٥٠.٠٠٠ فرس سنويا الى السلطان ويرافقه الصناجقة
يسرون على دقات الطبول - ثم يسير خلفهم أعضاء الديوان
ثم الضباط - « ويحمل أموال الخزنة ثلاثون بغلا يسرون وحولهم
الانكشارية المسلمون ويبلغ عددهم حوالى ألفين ويرتدى ريسهم
قفطانا جميلا يهديه اليه الباشا ويركب حصانا مزينا بالأعلام
الكثيرة ويسير الركب فى نظام تام على دقات الطبول » (٢٥٢) .

وجدير بالذكر أن القناصل الفرنسيين قد شاركوا فى
احتفالات المصريين فعندما استولى مراد خان على بغداد وأقيمت
الزيارات والاحتفالات فى شوارع القاهرة وفرشت بالسجاجيد
« حرص القناصل الفرنسيون على تزيين واجهات منازلهم وفرشوا
الشوارع أيضا بالسجاجيد الفاخرة » (٢٥٣) . كذلك شاركوا
فى احتفالات استقبال الباشا الجديد فكان القنصل « يسرع بزيارته

Thevenot : Op. Cit., P. 487.

(٢٥٠)

Coppin : Op. Cit., P. 164.

(٢٥١)

Thevenot : Op. Cit., PP. 162 --- 163.

(٢٥٢)

Coppin : Op. Cit., P. 197.

(٢٥٣)

ويقدم له الهدايا » ، كذلك كان القناصل الفرنسيون يحتفلون بأعياد فرنسا مثل مولد لويس الرابع عشر وذكر كوبلن أن « القنصل الفرنسي بريمون كان يقدم الهدايا للباشا والصناجق في مثل هذه المناسبات ويحرص على إقامة المآدب » (٢٥٤) .

أما الأعياد التي احتفل بها المصريون فهي عيد الفطر وعيد الأضحى وذكر بالرن أن المصريين « يحرصون في رمضان على توزيع اللحم على الفقراء ويسمحون لأطفالهم بالخروج والزيارة » (٢٥٥) وفي ليلة القدر تقام الاحتفالات في شوارع القاهرة « ويتم انارة الفوانيس في المساجد والحوانيت » وقد حرص الفرنسيون على رؤية الاحتفال بليلة القدر لما فيها من مباحج فكانوا يحرصون على استئجار غرفة في شارع رئيسي ليتمكنوا من مشاهدة هذا الاحتفال (٢٥٦) .

واكد فيلامون أن المصريين يحرصون في أعيادهم واحتفالاتهم على تقديم الطعام « ولديهم عادة جميلة اذ يجلسون على الأرض ويأكلون . وطعامهم مطبوخ بالسمن أو الزيت وهم مغرمون بالفواكة ويأكلون بعد انتهاء الطعام الشمام والبطيخ » لديهم تقليد جميل « فعندما ينظر اليهم أحد عند الأكل لابد وأن يعطوه من طعامهم » وهم يأكلون كل أنواع الطعام ما عدا الخنزير لأنه محرم ويشربون العصائر الا النبيذ فهو محرم أيضا والمصريون أكثر كرما من الأتراك الذين يتصفون « بالبخل الشديد » (٢٥٧) .

Coppin : Op. Cit., P. 195.

(٢٥٤)

Palerne : Op. Cit., P. 80.

(٢٥٥)

Thvenot : Op. Cit., P. 463.

(٢٥٦)

Villamont : Op. Cit., P. 225.

(٢٥٧)

ولم يكتف الرحالة الفرنسيون بذكر أعياد واحتفالات المسلمين فقط بل تعرضوا لبعض المناسبات السعيدة لدى إقباط مصر مثل الزواج والمناولة .

وقدم مونكوني وصفا لاحتفال الأقباط بالزفاف فذكر « أن العروس سارت في شوارع القاهرة ترتدى فستانا من ساتان دمشقى أبيض وغطت رأسها بقماش أبيض حولها أربع من النساء يلعبن الموسيقى يدقون الطبل وامتطت العروس حماما مزينا وقد التف حولها الأطفال وأشعلوا الشموع ثم اقترب القس منها وتمتم بكلمات غريبة معلنا الزفاف » (٢٥٨) .

كذلك سجل مونكوني المناولة في أحد كنائس الأقباط فذكر « أن القس وضع خبزا ونبيذا في طبق ثم قام بالدوران ثلاث مرات ومعه الخبز والنبيذ وصليب خشبي رفعه الى السماء ثم شرب النبيذ ووضع الخبز والنبيذ في فم الأطفال ثم وزعه على الحاضرين » (٢٥٩) .

هذا ولم يقتصر وصف الرحالة على احتفالات المصريين من زواج وختان النخ وانما وصفوا أيضا اجراءات الدفن فذكر بالرن انه عند وفاة شخص « كانت النساء تطلق صرخات عالية وأصوات غريبة » ويتم وضع الميت في منتصف الغرفة وتقوم سيدتان أو ثلاث بالبكاء والنحيب طوال اليوم ويضربن وجوههن « بطريقة غريبة » (٢٦٠) ويسدلن شعورهن ثم يقرأ القرآن وتغسل الجثة ويتم الصلاة على الميت في المسجد ثم يدفن (٢٦١) في « علم

Monconys · Op. Cit., P. 135

(٢٥٨)

Ibid : P. 135.

(٢٥٩)

(٢٦٠) المقصود هنا الندابات .

Palerne : Op. Cit. P. 83.

(٢٦١)

أبيض » (٢٦٢) وتسير النساء خلفه وعلى وجوههن نقابهن الأسود (٢٦٣) ويسمح للنساء بزيارة المدافن ويحملن معهن الياسمين والأزهار والمياه المعطرة (٢٦٤) .

وقد ذكر تيفنو رأيا غريبا اذ يقول « ان المصريين يعتقدون ان ارواح الموتى تخرج من القبور يوم الأربعاء والخميس والجمعة وتتجول عظامهم في المقابر . ومن الغريب أن المسيحيين أيضا يعتقدون ذلك وكذلك بعض التجار اليونانيين في مصر القديمة (٢٦٥) .

والى جانب مواكب الاحتفالات والأعياد وصف الرحالة الفرنسيون مواكب التشهير بالمجرمين فيتم وضع « المجرم على الجمل ويطوف به شوارع المدينة » - ومن العقوبات المفروضة على المجرمين الضرب بالفلكة « فيتم تقييد أرجل المذنب بالسلاسل ثم يضرب على الأقدام واذا كان جرمه خطيرا فانه يضرب على ظهره وبطنه » ، « ولابد من اكمال عدد الضربات » . أما عقوبة الاعدام فتكون للشخصيات العظيمة أما المصريون فيتم اعدامهم « على الخازوق » وقد ذكر كوبان ان رجلا ظل يحتضر على الخازوق لمدة يومين . والمحكوم عليه بالاعدام يظل يضرب بالعصى حتى يصل الى ساحة الاعدام (٢٦٦) .

وقد شاهد مونكوني اعدام اثنين من الصناجق تمردا على الباشا واعتصما في مسجد السلطان حسن فألقى القبض عليهما وأعدما (٢٦٦) .

• الأتقان (٢٦٢)

Monconys : Op. Cit., P. 32.

(٢٦٣)

Thenaud : Op. Cit., P. 51.

(٢٦٤)

Thevenot : Op. Cit. P. 455.

(٢٦٥)

Coppin : Op. Cit., P. 129.

(٢٦٦)

Monconys : Op. Cit., P. 145.

(٢٦٧)

ثالثا - المنشآت الاجتماعية :

اهتم الفرنسيون بوصف المساجد وذكر تينو أن « الممالك كانوا احرص من الأتراك على بناء المساجد » فكل مملوك يتولى الحكم لابد وان يعمل على بناء مسجد يحمل اسمه (٢٦٨) وذكر ييلون أن المساجد في مصر تتكون من عدة طبقات يحرص المصريون على تجميلها ونظافتها (٢٦٩) ويعتبر مسجدي الفوري والسلطان حسن من أكبر وأشهر مساجد مصر (٢٧٠) .

وتعجب تيفيه من عدم وجود « أجراس » في المساجد للتنبيه على الصلاة وأكد نفوره من الآذان « يصعد القسيس المسلم الذي يلعب اماما الى أعلى المسجد ويطلق صرخات حادة لكي يتجمع المصلون في المسجد » وقد خلط تيفيه بين الاسلام والمسيحيين الشرقيين وقد امتازت ملاحظاته بالتعصب الشديد ضد الديانة الاسلامية فقد أطلق على المساجد في مصر « معابد الشياطين » (٢٧١) لكن رغم ملاحظاته القاسية والحادة الا أنه أبدى إعجابه بجمال المساجد وعماراتها وأكد التزام المصلين « بفصل أجزاء من أبدانهم خمس مرات قبل دخول المسجد » (٢٧٢) .

الأسواق :

امتازت القاهرة بتعدد أسواقها وتنوع منتجاتها وذلك لأن لمصر صلاتها التجارية مع آسيا وأفريقيا (٢٧٣) وقد تركزت

Thenaud : Op. Cit., P. 51.	(٢٦٨)
Belon : Op. Cit., P. 136 a.	(٢٦٩)
Chesneau : Op. Cit., P. 18.	(٢٧٠)
Thevet : Op. Cit., Levant P. 21.	(٢٧١)
Ibid : P. 21.	(٢٧٢)
Ibid : P. 14.	(٢٧٣)

العمليات التجارية في « أسواق الفورية وخان الخليلى » وامتازت بعض الأسواق ببيع سلع معينة مثل سوق الفورية الذى خصص لبيع السجاجيد التركية والفارسية ومنتجات الهند وقد حرص التجار على تغطية الأسواق والمحلات بسبب حرارة الجو خاصة في فصل الصيف (٢٧٤) .

أما الحمامات فقد عنى الرحالة بوصفها ، فذكروا أنها كانت من الرخام يتوسط الحمام نافورة وتمتاز أرضية الحمامات بالجمال وهى مغطاة بالسجاجيد وتوجد « موائد » من الرخام يستلقى عليها المستحم للتدليك « والحمامات مزودة بالماء البارد والساخن » ويقصد الحمامات المغاربة والأتراك والمصريون ويسمح للنساء بالذهاب الى الحمامات المخصصة لهن وأكد بالرن بأن النساء يتخذن من الذهاب الى الحمامات « ذريعة للخروج » (٢٧٥) . وخصصت الحمامات في الصباح للرجال وفى المساء للنساء ولابد من حضور العروس للحمام يوم زفافها (٢٧٦) .

وأخيرا عند ختام الحديث عما ذكره الرحالة عن الحياة الاجتماعية في مصر نجد أنهم اهتموا بوصف ملابس المصريين خاصة النساء وذكروا ان ملابسهن من القماش الرقيق من القطن او التفتاه وانهن يرتدين الأحذية الملونة ولابد لهن من وضع نقاب على الوجه عند الخروج (٢٧٧) علل يبلون ذلك بأنه على « حسب شريعة محمد » « والنساء لا يخرجن سافرات أبدا ولكن

Palerno : Op. Ctl., P. 42.

(٢٧٤)

Palerno : Op. Cit., P. 92.

(٢٧٥)

Coppin : Op. Cit., P. 139.

(٢٧٦)

Villamont : Op. Cit., P. 218.

(٢٧٧)

ذلك ليس لجمالهن لأن الأنثوييات أيضا ذوات البشرة السوداء
يلبسن النقاب مثل نساء الأثراك » (٢٧٨) .

والحقيقة أن وصف حسن الوزن للملابس النساء أدق « يظهر
البذخ على لباس النساء فهن يخرجن متبرجات بالحلى التى
يلبسنها على شكل أطواق على الجبين ويضعن عصاية غالية
الشمع فوق رؤوسهن وتتألف كسوتهن من ثوب من جوخ ذى اكمام
طويلة ويلفن أجسادهن بوشاح من القطن المستورد من الهند
ويضعن على وجوههن برقعاً صغيراً أسود اللون وأغرب ما ذكره
حسن الوزن عن نساء القاهرة هو أنها « لا تقبل أن تغزل
أو تخطط نوبا أو تطهو الطعام والقليل يصنعن الطعام فى بيوتهن
باستثناء العائلات الكبيرة ، وتتمتع هذه النسوة بحرية كبيرة
وبالكثير من الاستقلال وعندما يذهب الزوج الى مكانه تلبس
الزوجة وتتعطر وتستأجر حماراً لزيارة أهلها » (٢٧٩) .

هذا ويلاحظ مما سبق اهتمام الرحالة بالحديث عن
المساجد والأسواق والحمامات وغيرها من المنشآت الاجتماعية
ولا تلمس حرصهم أو اهتمامهم بالحديث عن المؤسسات الثقافية
أو دور العلم فى مصر باستثناء فرمات الذى تحدث عن الجامع
الأزهر وأبدى إعجابه به كهؤسسة تعليمية ودينية هامة .

Belon : Op. Cit., 104, a.

(٢٧٨)

(٢٧٩) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٥٩١ .

الفصل الرابع

المدن المصرية وثرواتها

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا لمدين مصر وقراها في القرنين السادس عشر والسابع عشر وقد حدد فرمنال موقع مصر فذكر أن البحر المتوسط يقع في شمالها ومن الجنوب « أثيوبيا » ومن الشرق الصحراء العربية ، ومن الغرب صحراء إفريقيا « ومصر من أجمل البلاد وأكثرها رخاء وثروة » (٢٨٠) .

ومدينة القاهرة هي العاصمة وقد أطلق عليها رحالة العصور الوسطى من الأوروبيين « القاهرة الكبرى » وذلك بحكم اللقاء الطرق التجارية فيها (٢٨١) .

وتعتبر مدينة « القاهرة الكبرى » من أهم المدن التي حرص الرحالة على تقديم مشاهدتهم وملاحظاتهم عنها، وقد أجمعوا على أن حجمها فاق حجم باريس فذكر جريفيان « أنها أكبر من باريس ثلاث مرات (٢٨٢) بينما وصفها تينو « بأنها أكبر من باريس خمس مرات (٢٨٣) وأكد بالرن « أنها من أكبر مدن إفريقيا » (٢٨٤) . وجاء وصف رحالة القرن السادس عشر مطابقا لما ذكره حسن

Fermandel : Op. Cit., P. 21.

(٢٨٠)

(٢٨١) جاستون فييت : القاهرة مدينة الفن والتجارة ترجمة مصطفى

العبادي . القاهرة ١٩٩٠ م ص ٧٣ .

Clément : Op. Cit., P. 5.

(٢٨٢)

Thenaud : Op. Cit., P. 46.

(٢٨٣)

Palerne : Op. Cit., PP. 42 -- 45.

(٢٨٤)

الوزان « بانها القاهرة الكبرى الباهرة ، أكبر مدن العالم ، وأكثرها رونقا وبهاء » (٢٨٥) .

وأكد رحالة القرن السابع عشر كبر حجم القاهرة فذكر تيفنو « القاهرة أكبر من باريس » (٢٨٦) ووصفها كوبان بأنها « أكبر من باريس ثلاث مرات » (٢٨٧) .

وقد بنيت القاهرة أسفل جبل المقطم ولذلك فقد رأى تيفنو « أن موقعها سيء » وأن مصر القديمة « كانت أفضل لأنها قريبة من النيل » (٢٨٨) بينما أكد كوبان أن « موقع القاهرة أفضل من مصر القديمة » (٢٨٩) .

وقد شيد القاهرة جوهر الصقلي وهى محاطة بأسوار كبيرة بها العديد من الأبواب عددها فيلامون فمنها باب النصر ويقع نحو الشرق ، وباب زويلة فى اتجاه النيل ، وباب الفتوح (٢٩٠) .

ولما كان كوبان مهتما بارسال الحملات الصليبية ضد الدولة العثمانية والشرق فإنه قد حرص على ذكر مدى الاستحكامات فى مدينة القاهرة فذكر « أن أسوارها قد تبدو قوية ، بها العديد من الأبواب ، ولكنها فى الحقيقة ضعيفة التحصين » (٢٩١) وصحح

-
- (٢٨٥) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٥٧٩ .
 Thevenot : Op. Cit., P. 404. (٢٨٦)
 Coppin : Op. Cit., P. 57. (٢٨٧)
 Thevenot : Op. Cit., P. 405. (٢٨٨)
 Coppin : Op. Cit., P. 56. (٢٨٩)
 Villamont : Op. Cit., P. 186. (٢٩٠)
 Coppin : Op. Cit., P.61. (٢٩١)

بعض الأخطاء التي وردت في كتابات بعض الأوروبيين بأن القاهرة هي بابل القديمة فذكر أن الأخيرة في العراق (٢٩٢) .

وتعتبر القلعة هي « مركز الحكم في القاهرة » وقد شيدت على صخور صلبة ، وكانت تعتبر « مدينة ملكية مخصصة للسلطان وأسرته في عهد المماليك » ، وعندما دخل سليم مصر أصبحت القلعة مقرا للباشا العثماني وموظفيه (٢٩٣) وقد شية بيلون القلعة بقصر سانت بيير في روما (٢٩٤) . وعندما زار الفرنسيون القلعة أبدوا إعجابهم الشديد بها « فمبانيها مزينة بالرخام وأبوابها بها العديد من التذهيبات وبها العديد من النوافذ المزخرفة والتي تطل على القاهرة وفناء القلعة عظيم الاتساع به سلالم صغيرة تسمح بصعود الدواب اليه (٢٩٥) وقد حرص الباشا على اقتناء الحيوانات الجميلة في القلعة بحيث اننا لا نجد رحالة من رحالة القرن السادس عشر الا وذكر هذه الحيوانات خاصة الزرافة التي شاهدوها في فناء القلعة وتعجبوا من لونها وجلدها الغريب الذي يشبه جلد الثعبان فخصص بيلون فصلا بأكمله عنها (٢٩٦) ويمتاز قصر السلطان بالاتساع الكبير حتى « ان مساحته تقترب من مساحة مدينة أورليان في فرنسا » .

ويوجد في القلعة عدد من السجون بعضها تشبه البئر يكثر فيه الوطايط والروائح الكريهة ويسود فيه الظلام التام وهناك

Thevet : Op. Cit., Universelle FF. 171 --- 174.	(٢٩٢)
Thenaud : Op. Cit., P. 41.	(٢٩٣)
Belon : Op. Cti., 109 a.	(٢٩٤)
Ibid : P. 108 b;	(٢٩٥)
Ibid : P. 109 b.	(٢٩٦)
Thenaud : Op. Cit., PP. 46 --- 47.	(٢٩٧)

سجن يقال ان « النبی يوسف حبس فيه » (٢٩٨) . وتوجد اسطبلات الخيل فى القلعة وهى خاصة بالباشا وهى مزينة بأجمل زينة (٢٩٩) .

وفى ميدان الرملية كان الفرسان يقومون بتدريباتهم العسكرية (٣٠٠) وفى يوم الجمعة يقدمون العاهم للتسلية ويرقصون فى فناء القلعة (٣٠١) .

وتصل المياه الى القلعة بواسطة قناة تمتد من النيل حتى القلعة وقد أقيمت العديد من السواقي لرفع الماء الى المستوى المطلوب (٣٠٢) وهى المعروفة بمجرى العيون .

وقد سرد الرحالة الفرنسيون بعض القصص عن بشر يوسف فذكروا انه يحوى نفقين احدهما يؤدى الى السويس (٣٠٣) والثانى الى الهرم ويمنع المسيحيون من الاقتراب منه خوفا من دس السم فيه (٣٠٤) وعلى البئر كتابات باللغة العربية ، وتستخدم بقرتان لتديرا الساقية لرفع المياه (٣٠٥) .

أما شوارع القاهرة فهى مستقيمة وطويلة عنى السكان بتشجيرها لكى ينعموا بالظل ويحتموا من شمس الصيف الحارقة

Thevenot : Op. Cit., P. 449.

(٢٩٨)

Thevenot : Op. Cit., P. 450.

(٢٩٩)

Monconys : Op. Cit., P. 143.

(٣٠٠)

Fernand : Op. Cit., P. 46.

(٣٠١)

Chesneau : Op. Cit., P. 20.

(٣٠٢)

Thevenot : Op. Cit., P. 449.

(٣٠٣)

Coppin : Op. Cit., P. 67.

(٣٠٤)

Monconys : Op. Cit., P. 125.

(٣٠٥)

ولذلك زرعوا فيها أعدادا كبيرة من أشجار الكافور (٣٠٦) ولكن « تفتقر هذه الشوارع الى الهدوء » فالباعة لا يكفون عن الصراخ للاعلان عن بضاعتهم ولذلك فرغم جمال القاهرة الا « أنها مدينة مزعجة للغاية » على حد وصف تينو لها (٣٠٧) وعند مدخل كل شارع يوجد باب خشبي يفلق على سكانه ليلا (٣٠٨) .

وقد لفتت منازل مدينة القاهرة أنظار الرحالة باتساعها وجمال حدائقها الداخلية المزروعة بأجود أنواع الثمار والأشجار وأبدوا إعجابهم باهتمام المصريين بتزيين منازلهم « فحتى الأبواب والنوافذ مزينة بالأصداق والعاج ، ومنازل أثرياء القاهرة لاتقل روعة وجمالا عن أثرياء أوروبا (٣٠٩) وهي متعددة الطوابق والبعض منهم بنى على طراز منازل البندقية . ويعاب على المصريين عدم اهتمامهم بتزيين منازلهم من الخارج (٣١٠) ولذلك فهي قبيحة من الخارج جميلة من الداخل » (٣١١) ومنازل البكوات جميلة ، واسعة بها فناء كبير واصطبلات تستوعب أربعين أو خمسين حصانا ، وحجراتها واسعة مزينة يوجد مدخل للمنزل ثم حجرة (٣١٢) تترك فيها الأحذية وحجرة لاستقبال الأتراك وأخرى لاستقبال المسيحيين وباب المنزل الخارجى « قصر لابد للمرء أن يخفض رأسه عند الدخول » (٣١٣) وغراف الاستقبال « أرضيتها

Belon : Op. Cit., 108 b.	(٣٠٦)
Thenaud : Op. Cit., P. 46.	(٣٠٧)
Coppin : Op. Cit., P. 57.	(٣٠٨)
Belon : Op. Cit., 107 a.	(٣٠٩)
Palerne : Op. Cit., PP. 42 --- 45.	(٣١٠)
Monconys : Op. Cit., P. 34.	(٣١١)
Coppin : Op. Cit., P. 85.	(٣١٢)
Belon : Op. Cit., P. 85.	(٣١٣)

من الرخام » وجدران المنزل أيضا مغطاه بالرخام مع بعض التذهيبات ، ويوجد في منازل الأثرياء « نافورة » يخرج منها الماء تزرع حولها أشجار الفواكه المختلفة ، والفناء الداخلى سقفه مفتوح لدخول الهواء والضوء (٣١٤) ولما كان سكان القاهرة يعتمدون على النيل فى الشرب فان المياه تصل الى المنازل بواسطة السقائين (٣١٥) .

وتمتاز القاهرة بكثرة محلاتها التى تفوق فى اعدادها محلات روما وباريس « وان كانت محلات القاهرة أصغر حجما » (٣١٦) الا أنه يوجد بها أنواع مختلفة من البضائع مثل « المسك والعطور ومسك الزبار والبلسم والعقاقير المجلوبة من اليمن - بالاضافة الى العديد من المحلات التى تخصصت فى بيع الطعام » (٣١٧) .

ويوجد فى مدينة القاهرة جنسيات مختلفة ومن التجار عرب وبربر ، مغاربة ، يهود ، أثيوبيين ، أرمن ، نساطرة (٣١٨) ولكن اهتمام الرحالة الفرنسيين كان بالجمالية الفرنسية وقد أفاض كوبان فى الحديث عنها فذكر أنه كان يوجد فى القاهرة خان مخصص لسكنى الفرنسيين وقدر كوبان عدد أفرادها عام ١٦٣٨ بحوالى ثلاثة وثلاثين تاجرا يسكنون حيا قريبا من الخليج . ومنزل القنصل من أجمل المنازل فى هذا الحى فحوائطه مزينة بالسجاجيد الفاخرة عليها رسومات تمثل لويس الثالث عشر ، وللمنزل فناء كبير واسع وهو متعدد الحجرات فتوجد حجرة

Chesnau : Op. Cit., P. 20.

Palerne : Op. Cit., P. 42.

Fernand : Op. Cit., P. 50.

Villamont : Op. Cit., P. 192.

(٣١٤)

(٣١٥)

(٣١٦)

(٣١٧)

(٣١٨)

لاستقبال الفرنسيين وهى مزودة بمائدة وكراسى ومقروشة
بالسجاجيد الفاخرة وتوجد غرفة أخرى مخصصة لاستقبال
الأثراك وهى مفروشة بالسجاجيد فقط ، وأرضية المنزل مغطاه
بالأحجار البيضاء الجميلة ، وذكر كوبان أن القنصل الفرنسى
بريمون كان حريصا على تزيين جدران منزله بالحيوانات المحنطة
كالتماسيح المحشوة بالتبن وبعض الحيوانات الأخرى التى تم
صيدها من البحر الأحمر (٣١٩) .

ويوجد مبنى فى الخان ملحق به كنيسة وأماكن لاستقبال
أعضاء البعثات الكابوسينية (٣٢٠) .

هذا ولم تحو الجالية الفرنسية التجار وأعضاء البعثات
الكابوسينية فقط وإنما ذكر كوبان وجود طبيب فرنسى جراح
يدعى برتیه Bertier كان يعمل فى خدمة الباشا فى مصر
وأن زوجته أصبحت « ترتدى ملابس الأثراك وتلون أيديها
وأظافرها » (٣٢١) .

وتعتبر بولاق مرسى القاهرة وبوابتها فلابد من المرور عليها
قبل دخول مدينة القاهرة لدفع الضريبة على البضائع (٣٢٢)
ويعمل فى بولاق عدد كبير من الصناع وتجار الحبوب وبها منازل
جميلة وعدد من المساجد والمدارس وترسو فى بولاق أنواع مختلفة
من السفن تحمل البضائع الى القا
« الجريمة » وهى سفن عريضة تشبه سفن

(٣١٩)

(٣٢٠)

(٣٢١)

(٣٢٢)

(٣٢٣)

على بولاق مختلف البضائع الهندية (٢٢٤) . وهى ميناء جميل على النيل يتولى ادارته بعض اليهود ويفرض قرش على كل رأس للمرور منه (٢٢٥) وفى بولاق بركة جميلة حولها منازل ومساجد مزينة بأجمل زينة ولكن « منزل الخليفة من أجمل المنازل ليس فى بولاق فحسب وانما فى القاهرة كلها » (٢٢٦) .

أما الروضة فهى منطقة صغيرة قليلة السكان ترجع أهميتها لوجود مقياس النيل بها وهو عمود مدرج يوضح مدى ارتفاع مياه النيل ويوجد موظفون مهمتهم مراقبة ارتفاع النيل ويقام احتفال كبير فى كل عام بمناسبة فتح الخليج وتنتعش منطقة الروضة خلال هذه الفترة فيفد عليها الباشا وكبار الشخصيات (٢٢٧) وقد اتفق ما ذكره الرحالة الفرنسيون مع ما ذكره ليو الافريقى « فعلى حافة النهر يوجد بناء صغير منعزل ومغلق وقد أقيمت فى وسطه حفرة مربعة مغطاه عمقها سبعة عشر ذراعا وعلى واجهة هذه الحفرة تفتح قناة باطنية تتصل بمجرى النيل وفى وسط الحفرة عمود مقسم الى عدد متساو من الأذرع بعمق الحفرة وعندما يأخذ النيل فى الزيادة يدخل الماء فى القناة ويصل الى الحفرة ويصعد يوميا بمقدار نصف ذراع (٢٢٨) .

ولما كان مونكونى عالما فيزيائيا فقد اهتم بزيارة منطقة الروضة وملاحظة ارتفاع المياه فيها وسجل ملاحظاته وأرسلها الى زملائه العلماء فى باريس (٢٢٩) .

Coppin : Op. Cit., P. 41.

(٢٢٤)

Thevenot : Op. Cit., P. 399.

(٢٢٥)

Coppin : Op. Cit., P. 81.

(٢٢٦)

Belon : Op. Cit., P. 110 b.

(٢٢٧)

(٢٢٨) ليو الافريقى : المرجع السابق . ص ٥٨٨ .

Monconys : Op. Cit., P. 55.

(٢٢٩)

وبالإضافة الى ما سبق أهتم الرحالة الفرنسيون بزيارة
الأزبكية وقد اعتبروها « من أجمل مناطق القاهرة ومنازلها من
أفخم المنازل » (٢٣٠) « وهى منطقة منخفضة عن القاهرة . تنتشر
فيها الأشجار الجميلة ، وبها شوارع جميلة ، مساجدها
مزيّنة (٢٣١) . وعندما تمتلئ بركتها بالمياه يركب السكان المراكب
ويتنزهون فيها » (٢٣٢) . وقد ذكر ليو الأفريقى أن سكان القاهرة
يجتمعون فى ساحة الأزبكية بعد الصلاة - حيث يجتمع فيها
المشعوذون الذين يقومون بترقيص الجمال والحمر والكلاب كذلك
يجتمع فيها المتبارزون بالسيف والترس والعصا وغيرها من
وسائل التسلية « وتوجد فى هذه الضاحية الملاهى غير الشريفة ،
كالواخير والنساء الساقطات » (٢٣٣) .

وكانت المزارات المسيحية من أهم المناطق التى لفتت انتباه
رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر فمعظمهم تقريبا قام
بزيارة مصر القديمة والمطرية .

ففى مصر القديمة كنيسة أبى سرجة التى قدم شسنو وصفا
تفصيليا عنها (٢٣٤) وذكر بيلون أن بها العديد من الكنائس وبها
العديد من الأرمن واليونانيين والمسيحيين (٢٣٥) وترجع أهميتها
أن السيدة مريم العذراء فرت من بطش هيرودوس ولجأت الى
مصر وأقامت فترة فى مصر القديمة ولذلك فانه أغلب سكانها من

Villamont : Op. Cit., P. 188.

(٢٣٠)

Fernand : Op. Cit., P. 53.

(٢٣١)

Monconys : Op. Cit., P. 34.

(٢٣٢)

(٢٣٣) ليو الأفريقى : المرجع السابق . ص ٨٣ .

Chesneau : Op. Cit., P. 20.

(٢٣٤)

Belon : Op. Cit., P. 110 b.

(٢٣٥)

الأقباط كما ذكر مونكوني (٣٣٦) ويوجد بها بعض الأديرة منها دير مار مرقس الذي يقصده المجانين للشفاء . وبها أيضا مدافن الفرنسيين (٣٣٧) .

والمنطقة الواقعة بين القاهرة ومصر القديمة بها اعداد كبيرة من المزارع الجميلة ويوجد بها صوامع يقال أن النبی يوسف حفظ فيها قمح مصر (٣٣٨) .

كذلك قصد الفرنسيون المطرية ففيها بستان مريم حيث لجأت العائلة المقدسة (٣٣٩) وفيه بئر تفجرت بالمياه تحت أقدام العذراء فحبرت منه وقد بنى حول البئر نافورة يستخرج منها الماء بواسطة اناء من المرمر ، أما شجرة مريم فهي مورقة دائمة الخضرة (٣٤٠) وهي تنتج بلسما وذكر ليو الافريقى أن أوراقها تشبه أوراق الكرمة (٣٤١) وفي الحديقة توجد نافذة صغيرة ذكر شسنو أن مريم تركت عليها المسيح وهو طفل صغير ريثما تنتهى من غسل ملابسه وقد أطلق عليه « شباك مريم » (٣٤٢) وتمتاز الحديقة بوجود العديد من الأشجار مثل التين والرمان والجوز . ويقصد الحديقة التجار والرحالة الأجانب وهى محاطة بسور كبير (٣٤٣) . وتوجد شجرة تين كبيرة فى الحديقة يزعم فرمال أن

Monconys : Op. Cit., P. 55.

Thevenot : Op. Cit., P. 442.

Fermanel : Op. Cit., P. 69.

Belon : Op. Cit., P. 110 b.

Villamont : Op. Cit., P. 204.

(٣٣٦)

(٣٣٧)

(٣٣٨)

(٣٣٩)

(٣٤٠)

(٣٤١) ليو الافريقى : ص ٥٨٦ .

Chesneau : Op. Cit., P. 20.

Belon : Op. Cit., P. 110 b.

(٣٤٢)

(٣٤٣)

علاء

العدراء اختبأت في جذعها عندما كان جنود هيرودوس
يطاردونها (٢٤٤) .

هذا وقد لفتت الآثار الفرعونية القديمة انتباه الرحالة خاصة
في الجيزة فحرص معظمهم على زيارتها رغم أن منطقة الأهرامات
« غير مأهولة بالسكان » ولا يوجد بها سوى الرمال (٢٤٥) ولكن
الأهرام « من أجمل عجائب الدنيا السبع » وهي مقامة في صحراء
مصر « بعيدة عن النيل » وقد استخدمت « كمدافن لملوك مصر
العظماء » (٢٤٦) .

والهرم الأكبر هرم خوفو كتلة كبيرة ضخمة من الأحجار بنى
فوق أرض صلبة وهو أجمل بكثير مما وصفه الكتاب الاغريق ،
وقد حرص بيلون على صعود قمته لرؤية النيل والصحراء (٢٤٧)
وقد وجد فرمنال صعوبة كبيرة في صعود الهرم ولكنه أكد أن
النزل أصعب وأشق ، وقد رأى فرمنال من قمة الهرم « أجمل
مناظر العالم حيث تحيط الخضرة بالقاهرة من كل جانب » (٢٤٨) .

وذكر فيلامون قصة طريفة سمعها أثناء زيارته لمصر فقد
أراد الباشا البحث عن الذهب داخل الهرم فأحضر شخصا
محكوما عليه بالاعدام وأمره بالنزول في بئر الهرم لعله يجد الكنز
أو يموت ، ولكن الرجل وجد سردابا في البئر سار فيه حتى رأى

Fernanel : Op. Cit., P. 93.

(٢٤٤)

Thenaud : Op. Cit., P. 607.

(٢٤٥)

Fernanel : Op. Cit., P. 73.

(٢٤٦)

Belon : Op. Cit., 116 a.

(٢٤٧)

Fernanel : Op. cit., P. 61.

(٢٤٨)

ضوءاً في نهايته فاتجه نحوه ونجح في الخروج وأسرع الى الباشا يخبره بخروجه حيا ولكنه لم يعثر على الكنز المنشود (٣٤٩) .

وقد حرص بيلون على دخول الهرم الأكبر ووصف المصاعب التي صادفها وأنه اضطر لحمل شمعة في يده ، وأن يزحف على بطنه في بعض المناطق داخل الهرم حتى تمكن من دخول غرفة مربعة طولها ستة أقدام وعرضها أربعة أقدام حيث وجد تابوتا من المرمر الأسود طوله اثنا عشر قدما وبداخله مومياء الملك (٣٥٠) . وقد حدث لدى فرمنال خلط بين خوفو وبين فرعون موسى فأكد رواية غير صحيحة تاريخيا وهي أن خوفو لم يدفن في هرمه وإنما غرق في البحر الأحمر وهو يطارد الاسرائيليين وأكد أن خوفو هو فرعون موسى ، وأن أحجار الهرم من الممكن أن تبني مدينة بأكملها (٣٥١) كذلك حرص مونكوني العالم الفيزيائي على دخول الهرم وقدم وصفا تفصيليا عن طوله وعن حجارته ولكنه لم يجد الزيارة ميسرة فدخل الهرم وجد العديد من الخفافيش (٣٥٢) أما تيفيه فعند كتابته عن الأهرام نقل العديد من مصطلحات هيرودوت ولكنه حرص على تصحيح خطأ وقع فيه البعض « أن من يتسلق قمة الهرم يستطيع رؤية فانار الاسكندرية فصيح ذلك واعتبرها مبالغة (٣٥٣) » .

أما أبو الهول فقد اثار إعجاب تيفيه بدرجة كبيرة حتى انه ذكر أنه « لا مجال للمقارنة بين أبى الهول والأهرام » ووصفه

Villamont : Op. Cit., P. 195.

(٣٤٩)

Belon : Op. Cit., P. 114 B

(٣٥٠)

Fermandel : Op. Cit., PP. 78 --- 80.

(٣٥١)

Monconys : Op. Cit., P. 68.

(٣٥٢)

Thevet : Op. Cit., Universeelle P. 191.

(٣٥٣)

بأن له جسد كلب على حد تعبيره وهو ابن ايزيس وكانت تقدم له القرابين ، وان العرب يخشون الاقتراب منه ولا يجرون على هدمه خوفا من ان تصيبهم اللعنة أو أن يصابوا بمكروه ، وأكد تيفيه هذا الاعتقاد الشائع ودل على ذلك بحادثة تعرض لها أحد الفرنسيين الذي سخر من أبي الهول وقام بتسليق التمثال وظل يسخر منه ثم ركب حصانه فوق منه على الفور ودق عنقه (٣٥٤) .

أما بيلون فقد وصف أبي الهول بأنه « أجمل بناء رآه من الحجارة » والتمثال ينظر الى القاهرة ، والأجزاء الخلفية من جسده على شكل جسد أسد أراد المصريون القدماء أن يرمزوا به لقوتهم ونزوتهم (٣٥٥) . بينما وجد فرمنال أن أبا الهول له وجه امرأة وجسد ثور (٣٥٦) ووصفه مونكوني بأنه له وجه سيدة وجسد أسد (٣٥٧) .

أعجب الرحالة الفرنسيون بآثار مصر القديمة وذكروا أن مصر مليئة بالآثار والمسلات والموميات وجذبت الأخيرة انتباههم حتى أن بيلون ذكر حرص القنصل الفرنسي فونيل على شراء مومياء لطفل وأرسلها الى فرنسا (٣٥٨) ولذلك حرصوا على زيارة سقارة واسماها تيفنو « مدينة الموميات » لأن بها العديد منها وأكد ان معظم الفرنسيين قد اشتروا الموميات من هذه المدينة وأنه استطاع بمساعدة مرشد عربي أن ينزل في بئر وجده مليئا بالموميات المحنطة وأن المصريين القدماء حرصوا على تحنيط موتاهم

Thevet : Op. Cit., Universelle P. 191.

(٣٥٤)

Belon : Op. Cit., 117 a.

(٣٥٥)

Fermandel : Op. Cit., P. 73.

(٣٥٦)

Monconys : Op. Cit., P. 61.

(٣٥٧)

Belon : Op. Cit., 116 a.

(٣٥٨)

بعيدا عن النيل وتركوا وجوههم مكشوفة ايمانا منهم بعودة
الأرواح الى أجسادهم (٣٥٩) ويتم لف المومياء بالكتان وتطلى
الأقدام والأظافر بالحناء وقد نزع فرمزال أربطة مومياء وجدها
في سقارة فوجد جسدها أسود اللون انتزعت منه الأحشاء
ومعظم الموميات التي وجدها كانت مغطاه بالبلسم وأكد أن صحراء
سقارة الجافة ساعدت على حفظ هذه الموميات وأن العرب
يرفضون حملها في سفنهم « لأنها نذير شؤم » (٣٦٠) .

ويلاحظ من وصف الرحالة الفرنسيين للآثار المصرية أنهم
اعتمدوا كثيرا في كتاباتهم على المؤرخين الاغريق خاصة تيفيه ،
كذلك جاءت بعض معلوماتهم غير صحيحة مثل تأكيد مونكوني أن
خوفو هو فرعون موسى ، كذلك ايمانهم العميق بلعنة الفراعنة
وتأكيدهم لها كما أن أغلبهم عجز عن تحديد وصف لأبى الهول
« فهو تارة له جسد ثور وتارة له جسد كلب أو جسد أسد
أما وجهه فهو وجه امرأة » وهذا الخلط يرجع الى اقتباسهم من
كتابات الاغريق هذا بالاضافة الى أنه في تلك الفترة لم تكن هناك
معرفة صحيحة ودقيقة عن الآثار المصرية .

مدينة الاسكندرية :

وهي من أهم موانئ مصر وبها العديد من التجار المسيحيين
واليونانيين وهي عامرة باليونانيين والأسبان والايطاليين (٣٦١) .
وقد رأى كوبان أن موقع المدينة سيء لأن الرمال تحيط

Thevenot : Op. Cit., P. 437.

(٣٥٩)

Fernand : Op. Cit., P. 83.

(٣٦٠)

Clément : Op. Cit., P. 8.

(٣٦١)

بها (٣٦٢) وذكر دى كاستل أن ميناء الاسكندرية أصابه التدهور بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح فلم تعد السوق الكبير للتوابل (٣٦٣) .

واكد تيفنو أن هواء الاسكندرية سيء للغاية من يوليو الى سبتمبر (٣٦٤) وذكر شسثو أيضا هذه الملاحظة خاصة هواء بحيرة مريوط ووصفه « أنه غير صحى وغير نقى » (٣٦٥) واتفق ذلك مع ما ذكره ليو الافريقى « أن بعض منتجات البساتين مؤذية ويصاب الناس بالحمى بعد تناولها » (٣٦٦) .

هذا وقد أقيمت مبانى الاسكندرية فوق صهاريج ماء ذات قناطر ويصل ماء النيل الى هذه الصهاريج ، وأثناء الفيضان يتم حفر قناة صناعية محفورة من النيل حتى الاسكندرية ويدخل الماء تحت سور المدينة ليصب في الصهاريج (٣٦٧) .

وقد وصف رحالة القرن السادس عشر منازل الاسكندرية بأنها جميلة وشوارعها ومحلانها تشبه محلات بلاد الشام (٣٦٨) ولكن رحالة القرن السابع عشر وصفوها على عكس ذلك فالشوارع مظلمة غير مرصوفة مسقوفة لحجب أشعة الشمس ومنازلها صغيرة النوافذ والفتحات (٣٦٩) .

Coppin : Op. Cit., P. 219.	(٣٦٢)
Clément : Op. Cit., P. 12.	(٣٦٣)
Thevenot : Op. Cit., P. 391.	(٣٦٤)
Chesneau : Op. Cit., P. 15.	(٣٦٥)
ليو الافريقى : المرجع السابق . ص ٥٧٢ .	(٣٦٦)
Palerne : Op. Cit., P. 19.	(٣٦٧)
Palerne : Op. Cit., P. 19.	(٣٦٨)
Ibid : Op. Cit., P. 19.	(٣٦٩)

هذا ويتولى ادارة المدينة أغا يعاونه قاض وائنان من السوباشى (٢٧٠) والمدينة ضعيفة التحصين لا يوجد بها الا عدد قليل من المدافع ، وأسوارها القديمة القريبة من البحر لايزيد ارتفاعها عن عشرة أقدام (٢٧١) .

وتعيش الجالية الفرنسية فى خان خاص بها يفلق عليها ليلا ويسلم المفتاح للأغا ويدفع التاجر ستة قروش مقابل اقامته فى الخان ولا يسمح للتجار بالخروج يوم الجمعة وقت الصلاة (٢٧٢) ويشبه الخان الفرنسى من الداخل الدير كما ذكر دى كاستل (٢٧٢) .

ولابد للتجار الأوروبيين من المرور على الجمرك ويوجد فى جمرك الاسكندرية ملتزم يهودى يحمل لقب معلم له سيطرة كبيرة على الجمرك الذى يتم اغلاقه يوم السبت عطلة اليهود (٢٧٤) . ويوجد جمرك آخر قديم توجد بعض الأبراج قريبة منه وتعتبر هذه الأبراج بمثابة قصور يمكنها استيعاب مائتى رجل ويحذر على الأجانب زيارتها ولكن تيفنو تمكن عن طريق الرشوة من تفقد هذه الأبراج والكتابة عنها فأكد أن تحصيناتها ليست قوية (٢٧٥) .

ويتم نقل البضائع التى تفد على الاسكندرية بواسطة « سفن الجرمة » الى رشيد ومنها الى القاهرة (٢٧٦) .

Monconys : Op. Cit., PP. 13 --- 14.

(٢٧٠)

Coppin : Op. Cit., P. 22.

(٢٧١)

Thevenot : Op. Cit., P. 81.

(٢٧٢)

Clément : Op. Cit., P. 12.

(٢٧٣)

Thevenot : Op. Cit., P. 395.

(٢٧٤)

Ibid : P. 383.

(٢٧٥)

Coppin : Op. Cit., P. 18.

(٢٧٦)

أما عن آثار المدينة فهي غنية بالآثار والأطلال والأحجار وأطلالها تدل على جمالها القديم وأنها « كانت أكثر المدن ثراء وعظمة » (٢٧٧) . ومن الآثار الجميلة المسلات وقد ذكر بيلون أن أجمل المسلات تم انتزاعها من الاسكندرية ونقلت إلى روما (٢٧٨) وبعض مسلات الاسكندرية استعمل أكثر من عشرين ألف شخص لرفعها ، ومعظم المسلات عليها كتابات بالهروغليفية وقد تم نقل العديد منها إلى روما واستانبول (٢٧٩) .

ومن الآثار التي كتب عنها الفرنسيون قصر كليوباترة وقد وصف كوبان شواهدة بأنها مغطاه بالمرمر الأبيض وبقياء أبوابه من الرخام والجرانيت (٢٨٠) .

وتحوى الاسكندرية العديد من الأعمدة الرخامية (٢٨١) . لعل أجملها عمود بومبى (السوارى) الذى أقيم ذكرى لانتصار قيصر على بومبى وهو كتلة صخرية منحوت من الجرانيت (٢٨٢) وقد وصفه الرحالة أنه من عجائب الدنيا ونظرا لارتفاعه يعجز عن تقليده أى صانع وقد أكد بيلون أنه أجمل وأضخم من أعمدة جزييا في روما (٢٨٣) وبالغ تيفنو في وصفه لعمود بومبى فذكر أنه يمكن رؤية إيطاليا من قمته (٢٨٤) .

Thevenot : Op. Cit., P. 387.

(٢٣٧٧)

Belon : Op. Cit., P. 94 L.

(٢٧٧٨)

Coppai : Op. Cit., P. 20.

(٢٧٧٩)

Ibid : P. 20.

(٢٧٨٠)

Monconys : Op. Cit., P. 13.

(٢٧٨١)

Belon : Op. Cit., P. 93 a.

(٢٧٨٢)

Ibid : P. 93 a.

(٢٧٨٣)

Thevenot : Op. Cit., P. 387.

(٢٧٨٤)

أما ليو الافريقى فقد ذكر ان السوارى قد اقيم للذكرى مقتل
المسيحيين المصريين على يد دقلديانوس وفي ذروة العمود مرآة
كبيرة من فولاذ حتى أن أى سفينة قد تمر من جانب هذه المرآة
فلا بد وأن تشتعل فى الحال (٢٨٥) .

وقد استرعت الكنائس والآثار المسيحية اهتمام الرحالة
فركزوا حديثهم عن كنيسة القديس مرقس أوسان مارك فذكر
بالرن أن « البنادقة سرقوا جثمانه ونقلوه الى بلادهم وأكد وجود
حجر من الرخام فى أحد شوارع الاسكندرية قيل أنه المكان الذى
قطعت فيه رأس القديس » (٢٨٦) .

كذلك كتب الرحالة عن « كوم الشقافة » ووصفوها بأنها
« تل به بعض الآثار القديمة » (٢٨٧) . وقد أطلق عليه ليو الافريقى
« تل الكسرات » حيث يعثر الناس على الحديد من الأبنية
القديمة (٢٨٨) .

هذا وقد وصفوا مدينة الاسكندرية بأنها مدينة غنية عامرة
بثروتها الزراعية يوجد بها العديد من الفواكه والخضروات
والأشجار المثمرة عدد أنواعها بيلون ولعل أهمها الموز والتمر الهندى
وشجر الآثل وأوراق البردى بالإضافة الى ثروتها السمكية
الهائلة (٢٨٩) .

وكذلك زاروا مدينة أبى قير ووصفوا تحصينات تلك المدينة

(٢٨٥) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٥٧٢ .

Falerno : Op. Cit., P. 13.

(٢٨٦)

Coppin : Op. Cit., P. 24.

(٢٨٧)

(٢٨٨) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٥٧٢ .

Belon : Op. Cit., P. 93 a.

(٢٨٩)

التي تبعد عن الاسكندرية مسافة بسيطة وانها « مدينة صغيرة » بنيت على ساحل البحر المتوسط بها عدد من مزارع النخيل (٣٩٠) ووجد قصر في المدينة به قوة من العساكر بقيادة أغا وعدد قليل من المدافع منها مدفعان أخذوا من الملك لويس التاسع بعد سجنه في المنصورة إلا أن هذه التحصينات ضعيفة وفي حالة سيئة وعلل كوبان ذلك « بأن الأتراك كانوا يهملون المكان الذي يستولون عليه » أما عن مياه الشرب فتصل بواسطة السقائين (٣٩١) .

وتتمد مسافات كبيرة من الرمال فيما بين الاسكندرية ورشيد وتوجد منطقة مزروعة بأنواع مختلفة من الأعشاب يتم تصدير العديد منها الى البندقية وتستخدم هذه الأعشاب بعد حرقها . في صناعة المورانو والكريستال وقد ذكر بيلون ملاحظة طريفة وهي أن الرعاة كانوا يقومون بالتجول والتفتيش في الرمال لعلهم يجدون بعض العملات التي سقطت من المسافرين (٣٩٢) .

وتقع مدينة رشيد عند مصب النيل وكانت تسمى « قديما كانوب » تبعد ستين ميلا عن الاسكندرية وهي من أجمل مدن مصر بعد القاهرة (٣٩٣) ويتولى ادارتها أغا ومعه سوباشي « وميناؤها أغنى من ميناء الاسكندرية » وهي مدينة مزدحمة مأهولة بالسكان فيها حرية أكثر من مدينة الاسكندرية (٣٩٤) بها العديد من مصانع الأرز يكثر فيها الصناعات والتجارة ، ويعمل فيها

Ibid : 93 a.

(٣٩٠)

Coppin : Op. Cit., P. 28.

(٣٩١)

Belon : Op. Cit., P. 97 a.

(٣٩٢)

Thevenot : Op. Cit., P. 296.

(٣٩٣)

Monconys : Op. Cit., P. 29.

(٣٩٤)

اليهود بأعداد كبيرة وترسو في مينائها السفن الكبيرة المحملة بالبضائع (٣٩٥) .

وقد نزل الرحالة الفرنسيون في ضيافة نواب القنصل في رشيد فنزل مونكوني لدى نائب القنصل دانطوان (٣٩٦) ونزل كوبان في ضيافة أونوريه دي بريمون (٣٩٧) . وأكد امتع الفرنسيين بحرية التجارة فيها غير انه لابد من دفع الرسوم الجمركية على البضائع (٣٩٨) .

ويزرع في المدينة العديد من الحاصلات مثل الموز والبطيخ فضلا عن كون المدينة من الموانئ الهامة وتمتاز بغنى ثرواتها الزراعية والحيوانية (٣٩٩) .

وتمتاز رشيد بجمال منازلها التي تضارع منازل القاهرة كما أن بها حمامات فخمة ، ويحرص السكان على وجود الحدائق في منازلهم ويزرعون فيها أوراق البردى وقصب السكر والقلقاس، ويزرع في رشيد بعض النباتات التي تستخدم في الصباغة ويستوردها التجار اليونانيون بينما تستورد المدينة الأخشاب اللازمة لصناعة السفن من استانبول ، فميناء رشيد له علاقاته التجارية مع العديد من مدن العالم وحرفة السكان الرئيسية هي صيد الأسماك (٤٠٠) .

Relon : Op Cit., P. 98 b.	(٣٩٥)
Monconys : Op. Cit., P. 29.	(٣٩٦)
Coppin : Op. Cit., P. 28.	(٣٩٧)
Thevenot : Op. Cit., P. 396.	(٣٩٨)
Falerne : Op. Cit., P. 220	(٣٩٩)
Belon : Op. Cit., PP. 97 a --- 98 b.	(٤٠٠)

وقد أعرب كوبان عن استيائه من كميات الناموس الهائلة التي وجدها في المدينة واستخدم نفس العبارات التي ذكرها بيلون من قبل مؤكداً أنه كان حائلاً دون الاستمتاع بجمال المدينة (٤٠١) .

ونعد دمياط من أهم المدن والموانئ التي ذكرها الرحالة الفرنسيون فقد أكد بالرن بأنه « لا توجد مدينة تضارع دمياط في تجارتها ونشاطها التجارى » ويعمل في المدينة العديد من التجار الأوروبيون وأقام فيها قنصل فلورنسا في القرن السادس عشر (٤٠٢) .

وذكر بالرن أن مدينة دمياط القديمة دمرت بعد حملة لويس التاسع وكانت تشغل موقع عزبة البرج الحالية وفي زمن الحروب الصليبية كانت دمياط محصنة تحصينا قويا أما « الآن فهي بلا قلاع ولا تحصين » (٤٠٢) .

وقد أكد كوبان - الذى عمل قنصلاً في دمياط هذه الحقيقة فذكر بروح حاقدة على الدولة العثمانية قائلاً « تعمدت التجول في دمياط للكتابة عن تحصيناتها لكى أحصل على معلومات تفيد بلادنا المسيحية ، وذلك لأننى أؤمن بتجميع المسيحيين في حلف مقدس ضد الأتراك وإرسال حملة صليبية جديدة ولذلك أجمع المعلومات عن مدى ضعف الامبراطورية العثمانية (٤٠٤) » والمدينة ليست قوية التحصين كما كانت عليه في العصور الوسطى ومن السهل الاستيلاء عليها لأن تحصيناتها ضعيفة » (٤٠٥) .

Coppin : Op. Cit., P. 28.

(٤٠١)

Palerne : Op. Cit., P. 171.

(٤٠٢)

Ibid : PP. 171 --- 173.

(٤٠٣)

Coppin : Op. Cit., P. 318 --- 329.

(٤٠٤)

Ibid : P. 304

(٤٠٥)

وتتمتاز مدينة دمياط بتجاريتها وصناعاتها فقد غامت فيها صناعة متطورة للأقمشة فهي تنتج أفضل أنواع الملابس الملونة (٤٠٦) وللمدينة نشاط تجارى كبير مع بلاد الشام وخاصة مع يافا ، بيروت (٤٠٧) وتشتهر دمياط بثروتها الزراعية وأشجارها المثمرة ففيها أفضل أنواع الفاكهة والأشجار من ليمون وموز ونخيل وبرتقال وزيتون وتين وقصب السكر ويمكن الحصول على أفضل أنواع الموز من دمياط (٤٠٨) .

أما عن تربية الماشية فقد أكد فيلامون أن نشاطها أكبر حجما في دمياط عن غيرها من مدن مصر (٤٠٩) وأكد هذه الحقيقة أيضا كوبان فذكر أنها « أرخص وأكبر حجما من ماشية القاهرة »، كذلك تتمتاز المدينة بثرواتها السمكية ويقوم الناس بتجفيف وتعليق الأسماك وهم بارعون في صناعة « البطارخ » (٤١٠) .

ومنازل دمياط جميلة تشبه « منازل مدينة طرابلس » حدائق مزدهرة عامرة بالفواكه والخضروات التي تروى بماء النيل (٤١١) .

هذا ولم تقتصر زيارات الرحالة على مدن مصر وموانئها الهامة وإنما تجولوا في المدن والقرى الصغيرة خاصة المناطق الواقعة بالقرب من رشيد فوصفها بيلون « أنها من أجمل قرى

Villamont : Op. Cit., P. 177.

(٤٠٦)

Falerno : Op. Cit., P. 181.

(٤٠٧)

(٤٠٨)

Ibid : P. 177.

(٤٠٩)

Coppin : Op. Cit., P. 332.

(٤١٠)

Pelon : Op. Cit., 998.

(٤١١)

مصر ومن اغناها ، يزرع فيها أنواع مختلفة من الفوائه والقمح وقصب السكر » .

كذلك فان من أجمل المناطق التى وصفوها مجلة الأمير ومطوبس (٤١٢) .

أما فوه فقد وصفها بيلون بأنها أكبر من برشيد ويزرع فيها قصب السكر والخيار وبها العديد من أشجار النخيل والقلقاس ومختلف أنواع الخضروات والقمح والأرز (٤١٣) .

وانفرد ليو الافريقى بذكر بعض الملاحظات عن برنيسال فذكر « انها تحوى العديد من الساقطات » وعلل ذلك ان بها عددا كبيرا من العمال يشتغلون بضرب الأرز ويحققون مكاسب مالية كبيرة ولذلك فان المدينة تجذب أنظار الساقطات (٤١٤) .

وأبدى الرحالة اعجابهم الشديد بالمدن والقرى الواقعة بين دمياط والقاهرة خاصة شربين والمنصور وتمتاز الأخيرة بتوفر « القمح والأرز والفواكة والخضراوات » (٤١٥) .

واذا ابتعدنا قليلا عن مدن الوجه البحرى سنجد أن سيناء لفتت أنظار الرحالة وكان لابد أن يقدموا لنا وصفا عنها خاصة وأنهم مروا بها أثناء قدومهم أو عودتهم من مصر . وقد اهتموا بزيارتها خاصة وأن بها دير سانت كاترين فقدموا وصفا للدير وللرهبان فذكروا « أنهم ينتمون للكنيسة اليونانية يلبسون غطاء يغطى أجسامهم كلها يعملون فى فلاحه الأرض لا يأكلوم اللحوم

Belon : Op. Cit., P. 996.

(٤١٢)

Ibid : P. 996.

(٤١٣)

• ص ٥٧٥ • ليو الافريقى : المرجع السابق .

Villamont : Op. Cit. P 181.

(٤١٤)

(٤١٥)

أو الزبد والجبن وغذاؤهم الرئيسى من الزيتون والبصل
والسمك» وأكد بالرن « أن سيناء هى جزء من آسيا وهى حقيقة
جغرافية معروفة (٤١٦) .

وأكد بيلون أن الحجاج المسيحيين الأوروبيين يحرصون
بعد أداء فريضة الحج على زيارة سيناء ولابد لهم من المرور
على دير سانت كاترين غير أنه يتحتم « الحصول على تصريح
من السلطات التركية » ، كذلك لابد من وجود دليل أو مرشد
عربى ليدلهم على الطريق . وذكر بيلون أن الدير يحوى العديد
من رجال الدين المارونيين والسوريين واليونانيين الذين يتكلمون
بلغات مختلفة .

ومن المناطق التى حرص المسيحيون الأوروبيون على زيارتها
فى سيناء أيضا منطقة عيون موسى حيث لا يُنقطع منها
الماء (٤١٧) ولكن « طعم الماء سييء حار قدير » .

ومدينة الطور بها قلعة ويوجد فيها اليهود والمسيحيون
والأرمن وهى « ميناء الهند » فى مصر كما أطلق عليها بالرن (٤١٨)
وبها كنيسة للمارونيين وسوق للأسماك الجافة التى تملح فى
الشمس وهى « مأوى للقوافل التى تتوقف فيها لتناول قسطا
من الراحة قبل استكمال الطريق الى مكة والجزيرة العربية »
ويمر فى الطور قوافل تحمل المسك والملح ومختلف أنواع
البضائع (٤١٩) .

Falerne : Op. Cit., P. 141.

(٤١٦)

Belon : Op. Cit., 128 a.

(٤١٧)

Falerne : Op. Cit., PP. 148 --- 150.

(٤١٨)

Belon : Op. Cit., P. 129 b.

(٤١٩)

وتقع السويس في الطريق بين سيناء والقاهرة وهي ميناء هام يتوفر فيها المياه العذبة وبها أنواع مختلفة من الفواكه خاصة العنب وأنواع مختلفة من المشيئة . ومنازل المدينة مبنية من سعف النخيل وأثناء تواجد بيلون فيها كان الباشا يجهز حملة الى زبيد في اليمن فقبض على عدد كبير من العرب استجنيدهم وذكر بيلون أن المسيحيين احتموا في منازلهم ولم يخرجوا منها خوفا من أن يجبرهم الباشا على الذهاب الى اليمن (٤٢٠) .

وتعتبر الصالحية من المناطق الواقعة في الطريق الى سيناء وقد بنيت منازلها بجذوع الأشجار وبها العديد من المواشي والدواجن وهي « نقطة هامة في الطريق المؤدى الى سيناء وبها العديد من المنازل والمساجد الجميلة وهي غنية بأشجارها وفواكهها ويزرع فيها الأرز والشعير والتفاح والصب والنخيل وتمتاز بوفرة مياهها » (٤٢١) . وقد أضاف ليو الافريقى بأن الطريق ما بين الخانكة والسويس غير مأهول بالسكان (٤٢٢) .

اقتصرت زيارات الرحالة الفرنسيين على المدن الهامة والرئيسية في الوجه البحرى بالإضافة الى سيناء أما مصر الوسطى والعليا فلم يتصلوا بها وبالتالي لم يقدموا ملاحظاتهم عنها .

هذا وقد لفتت الصحراء الغربية بأديرتها اهتمام رحالة القرن السابع عشر فقاموا بزيارتها وتجولوا في منطقة وادى النطرون حيث توجد الأديرة المسيحية فتجول كوبان بين دير أبى مقار ،

Belon : Op. Cit., 132 a.

(٤٢٠)

Ibid : P. 136 b.

(٤٢١)

Ibid : P. 136 b.

(٤٢٢)

(٤٢٣) ليو الافريقى : المرجع السابق . ص ٦٠٨ .

ودير الأنبا بيشوى ودير القديس جرجس وذكر « أن الأديرة الثلاثة متقاربة تقع في صحراء وادى النطرون » ويوجد دير رابع هو « دير السريان » يقع في المنطقة المعروفة « بحر بلا ماء » وأكد كوبان أن سبب تسمية المنطقة بهذا الاسم يرجع الى أن بعض القراصنة أرادوا مهاجمة الدير فأخذ الرهبان يصلون ويدعون الله لانقاذهم ولما كانت مياه البحر تصل الى الدير فقد استنجاب الله لدعوات الرهبان وانحسر الماء نهائيا عن المنطقة وفشل القراصنة في النزول بسفنهم فيها ولذلك سميت المنطقة « بحرا بلا ماء » لأن المياه كانت تصل اليها قديما . ولاشك أن رواية كوبان التي سمعها من الرهبان بعيدة كل البعد عن التفسير العلمى وقد زار هذه المنطقة علماء الحملة الفرنسية وقدموا العديد من الدراسات العلمية عنها (٤٢٥) .

ويعتبر دير أبو مقار من أهم الأديرة في وادى النطرون ، وهو لا يبعد كثيرا عن الاسكندرية ويوجد بداخله جثمان أبى مفسار فى تابوت من الرخام - والأديرة الثلاثة بها العديد من الرسومات التى تمثل العذراء وتتوفر المياه فيها ولكنها تتوفر بدرجة أفضل فى دير الأنبا بيشوى ، وتتوفر الفواكه فى دير السريان والأديرة الثلاثة محكمة التحصين محاطة بأسوار عالية خوفا من هجمات البدو (٤٢٦) .

وهكذا اقتصرت رحلات الرحالة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر على مدن الوجه البحرى ومصر السفلى وأن كانت

Belon : Op. Cit., 136 b.

(٤٢٤)

(٤٢٥) لمزيد من المعلومات عن منطقة « بحر بلا ماء » انظر ما كتبه الجنرال اندريوس من علماء الحملة الفرنسية عن المنطقة فقدم دراسة طبوغرافية عنها « طبوغرافية البحر الفارغ » وصف مصر ج ٢ .

Coppin : Op. Cit. PP. 272 --- 281.

(٤٢٦)

هناك بعض الجولات القليلة في أجزاء من الوجه القبلى مثل زيارة كوبان لبنى سويف لزيارة بعض الأديرة فيها وقد وصف كوبان قرى ومدن الوجه القبلى بأنها « أقل جمالا وتحضرا من الوجه البحرى » (٤٢٧) .

أما عن ثروة مصر الزراعية والحيوانية فقد قدم بيلون بوصفه عالما طبيعيا وصفا دقيقا عنها بحكم تخصصه ومن أهم الفواكه التى لفتت انظار الرحالة الموز وذكر بيلون « أن العرب يعتبرون الموز هو الثمرة التى حرمها الله على آدم » وتنتج مصر كميات كبيرة من أجود أنواعه فى مدينة دمياط (٤٢٨) ويصنع منه السكان المربى .

وينمو الشمام فى مصر فى معظم المدن المصرية وأجود أنواعه فى رشيد كذلك التين ينمو فى معظم المدن وتمتاز أشجاره بالضخامة ومن أشهر فواكه مصر الليمون والبرتقال والتمر هندى والنخيل « أما الأخشاب فهى قليلة فى مصر وتستورد العديد منها » (٤٢٩) .

ومن أشهر أنواع الخضراوات الخيار وخاصة خيار الشنبر « وبوجد كميات كبيرة منه خاصة فى بولاق والطرية وأشجاره تشبه أشجار التوت وأزهاره كبيرة شديدة البياض وبلغ ارتفاع شجرة الشنبر نفس ارتفاع أشجار الموز » ومن الخضراوات التى أعجب بها بيلون وغيره من الرحالة واستحسنوا مذاقها «القلقاس» وأفاضوا فى الحديث عنه وكيفية طهوه ويوجد فى مصر كميات

Ibid : PP. 276 --- 279.

(٤٢٧)

Belon : Op. Cit. P. 93 b.

(٤٢٨)

Ibid : Op. Cit. 180 b.

(٤٢٩)

كبيرة من الأرز والفول والقمح والشعير والذرة وذكر بيلون إن الشعير والفول في مصر غذاء للحيوان والإنسان (٤٣٠) .

أما النباتات فقد أفاض بيلون في الحديث عنها وعدد أنواعها ولعل أهمها أشجار الطلح *Acaccia* وقد ذكرها ليو الأفريقي أيضا « وهى شجرة شوكية تنتج الصمغ ونوع الصمغ الذى تنتجه يشبه المستكة » ولذلك يستخرجه بعض التجار « للغش والتدليس على أنه مستكة » لأن له نفس اللون والطعم (٤٣١) وتستورد اليونان كميات كبيرة منها بعض هذه الأعشاب تفرض عليها الضرائب مثل الحنة والبعض منها « يستخدمه الأثراك لطرد الأرواح الشريرة » ، كما يستخدمون الأعشاب « كعطر » أيضا خاصة الياسمين الذى يزرع في معظم حدائق القاهرة (٤٣٢) .

ويزرع أيضا في مصر أوراق البردى والورود على اختلاف أنواعها والحنة السوداء واللوتس (٤٣٣) وفي سيناء يتم جمع « المن » ويقوم الرهبان يجمعه وتوجد العديد من الأعشاب في صحراء سيناء وتوجد زهرة تعرف باسم « كف مريم » يقال انها تتفتح مرة واحدة في العام لأن العذراء أثناء مرورها في سيناء أمسكت واحدة بكفيها » .

أما ثروة مصر الحيوانية فقد قدم بيلون وصفا تفصيليا عنها فمصر غنية بالإبقر والماشية والجاموس والعجول والأغنام والماعز . وأكد بيلون أن حجم الماشية في مصر أكبر من حجمها في

Belon : Op. Cit., 129. a.

(٤٣٠)

(٤٣١) ليو الأفريقي : المرجع السابق . ص ٦٦ .

Belon : Op. Cit., F. 136 a.

(٤٣٢)

Ibid : P. 99 b.

(٤٣٣)

أى بلد آخر اما الجمال والخيول فتوجد أعداد كبيرة منها وتمتاز
بكبر حجمها في مدن مصر أما في سيناء فهى صغيرة الحجم (٤٢٤) .

وتستخدم الجمال في الانتقال وبعض السكان يأكلون لحم
الجمال مدخنا بعد تجفيفه في الشمس وقدر بالرن عدد الجمال في
القاهرة وحدها بثلاثين ألف جمل وقد وصفها بأنها « هادئة ترفض
على نغمات الطبول » (٤٢٥) .

وذكر يلون أن المصريين لديهم قدرة غريبة على تدريب
الحيوانات خاصة القروذ والحمير والجمال والخيول (٤٢٦) .
وانفق ذلك على ما ذكره ليو الافريقى عن مقدرة المصريين على
تدريب حيواناتهم فقال رأيت في القاهرة جمالا ترقص على نغمات
الطبل وقد شرح لى صاحبه كيف تدريبه فقد اختار قعودا وحسبه
مدة نصف ساعة في غرفة مبنية كأنها غرفة حمام وكانت أرضيتها
مدفأة بواسطة موقد . وفى خلال هذا الوقت كان يقف الرجل
خارج الحجرة ويلعب بدق الطبل وكان الجمل يرفع رجلا ويخفض
أخرى كما لو كان يرقص وليس بسبب هذه الموسيقى بل بسبب
السخونة التى كانت تؤلمه وبعد سنة من هذا الترويض قاد الرجل
هذا الجمل الى الساحة العامة وما أن يسمع هذا فرعات الطبل
حتى يظن أنه فوق الأرض التى كان عليها وذلك بسبب تذكره
حرارة النار التى كانت تلسع خفيه فيرفع قوائمه بنفس الطريقة
حتى ليبدو وكأنه يرقص » (٤٢٧) .

Ibid : P. 120 B.

(٤٢٤)

Palern : Op. Cit., P. 50.

(٤٢٥)

Belon : Op. Cit., 120 B.

(٤٢٦)

(٤٢٧) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٦٣٧ .

ومن الحيوانات التي اهتم الرحالة بذكرها « وعل الأوريكس »
أو المها وقد خصص له بيلون فصلا بأكمله فوصفه بأنه يشبه
« الثور » وان كان أصغر حجما ويباع بأسعار كبيرة (٤٣٨) .
أما ليو الأفريقي فقد ذكر أن « وعل الأوريكس » يفقد أظافره في
الصيف بسبب سخونة الرمال فيمنعه الألم من الركض ولذلك
من السهل صيده في فصل الصيف « (٤٣٩) وتصنع التروس من
جلده الذي يمتاز بالصلابة وتباع بأسعار عالية الثمن .

كذلك خصص بياون فصلا بأكمله للحديث عن « قط الزباد »
كان قنصل فلورنسا في الاسكندرية يمتلك واحدا وكان يقدم له
اللبن فقط حتى يتمكن من ترويضه ، ويستخرج « الزباد » من
هذا الحيوان وهي مادة يفرزها « من العرق تحت أبطيه » (٤٤٠)
« وذيله وحاليه » ويمكن استخراج الزباد « مرتين أسبوعيا »
على حسب قول ليو الأفريقي (٤٤١) .

ويوجد بمصر أنواع كثيرة من المساعز والغزال « وتكثر أعداد
الغزال في صحراء سيناء والصحراء الشرقية والسويس (٤٤٢) .

ومصر غنية بثرواتها المائية ففيها « أعداد كبيرة من الأسماك
مختلفة الأنواع وأجودها في رشيد » (٤٤٣) . وبالإضافة الى الثروة
السمكية توجد أعداد كبيرة من « فرس النهر » الذي يمتاز

Belon : Op. Cit., 118 b.

(٤٣٨)

• ليو الأفريقي : المرجع السابق ص ٦٤١ .

Belon : Op. Cit., a.

(٤٤٠)

• ليو الأفريقي : المرجع السابق ص ٦٤٥ .

Palerne : Op. Cit., P. 113.

(٤٤٢)

Fernand : Op. Cit. P. 5.

(٤٤٣)

بكبر حجمه وجلده السميك . وأكد فرمنال أن « فرس النهر لا يتواجد الا في نيل دمياط فقط » (٤٤٤) .

اما التماسيح فقد اسهب الجميع في وصفها فذكر شسنو بأنها توجد « بأعداد كبيرة في النيل ومنها الصغير والكبير فأحجامها متعددة » (٤٤٥) وأكد تيفيه أن المصريين والعرب « يأكلون لحم التماسيح » (٤٤٦) وتحدث فيلامون عن خطورتها وأنها تخرج أحيانا الى الشاطئ وتلتهم النساء والأطفال . وقد روى فيلامون قصة طريفة وهي أن تاجرا من البندقية اشترى تمساحا من بولاق لعرضه في إيطاليا وقد شق بطنه لتحنيطه ووجد أعدادا كبيرة من الحللى التى يرتديها المغاربة وكميات كبيرة من الأساور الفضية والنحاسية ، وأكد أن التمساح عندما يبتلع انسانا فإنه « يبدأ برأسه » ، ويحصل المصريون على « المسك من أنثى التمساح » (٤٤٧) .

وفدم لنا ليو الافريقى كيفية صيد التماسيح في مصر فذكر أنه يستخدم حبالا طويلا يربط في شجرة كبيرة وفي نهاية الحبل يربطون فيها نعجة فيخرج التمساح ليمتلع الحيوان مع الكلاية فتخترق فكه ولا يمكن أن يتخلص منها (٤٤٨) وذكر فرمنال أنهم « يربطون حمارا مجروحا لصيد التماسيح » .

وقد خصص بيلون فصلا بأكمله لوصف شكل التمساح وأرجله وجلده فذكر أنه « يشبه الحرباء » له ذيل طويل يتكون

Ibid : P. 5.

(٤٤٤)

Chesneau : Op. Cit., P. 30.

(٤٤٥)

Thevet : Op. Cit., Levant P. 101

(٤٤٦)

Villamont : Op. Cit., PP. 194 --- 197.

(٤٤٧)

(٤٤٨) ليو الافريقى : المرجع السابق . ص ٦٤٥ .

من « عدد من الحلقات » ويمتاز جلده بالسّمك والقوة (٤٤٩) وفي
نيل مصر يوجد أعداد كبيرة من البجع وكلاب البحر (٤٥٠) .

ويكثر في مصر الزواحف خاصة في سيناء وقد خصص بيلون
جزءا كبيرا لوصف الزواحف خاصة الحرباء فذكر أنها تتلون
حسب البيئة وأن ألوانها متعددة كذلك وصف ما شاهده من أنواع
مختلفة من السحالي والثعابين (٤٥١) .

وفي مصر أعداد كبيرة من الطيور خاصة العصافير على
اختلاف أنواعها ويساعد مناخ مصر المعتدل والذي يمتاز بالدفاء
طوال العام على نموها وتكاثرها بكميات كبيرة (٤٥٢) ومن المخاطر
التي تتعرض لها الطيور في مصر خطر حيوان النمس أو كما يسميه
المصريون « فار الفراعنة » ويستخدم لصيد القطط والفئران
والدجاج والعصافير (٤٥٣) وقد تأكد بيلون بأنه يتم في الإسكندرية
تربية النمس في الحدائق للتخلص من القطط والفئران . والنمس
لا يهدد الطيور فقط وإنما يلتهم أعدادا كبيرة من بيض
التماسيح (٤٥٤) .

النيل :

انبهر الرحالة الفرنسيون بجمال نيل مصر فوصفه فرمنال
« بأنه من أكبر الأنهار ويخرج من جنة الأرض ويستمد مياهه من

Belon : Op. Cit., 161 a.

Ibid : 98.

Ibid : 95 b.

Thevet : Op. Cit., P. 211.

Belon : Op. Cit., PP. 95 a --- 95 b.

(٤٤٩)

(٤٥٠)

(٤٥١)

(٤٥٢)

(٤٥٣)

(٤٥٤)

بحيرة تقع عند أقدام جبل القمر في أثيوبيا ، فيضانه معجزة وله مواسمه ويستمر من يونيو الى سبتمبر « (٤٥٥) .

هذا ونلاحظ أن الرحالة لم يحددوا منابع النيل وغلبت على كتابتهم العديد من الأخطاء وذلك لأن منابع النيل لم تكن قد اكتشفت بعد خلال هذه الفترة . وقد وصف فرمنال فيضان النيل بأنه يعتبر كارثة في بعض السنوات « لأنه يفرق القرى ويضطر السكان الى الاحتماء بالمناطق المرتفعة » ، كذلك فان انخفاض مياه النيل يؤدي الى كارثة حيث تنتشر المجاعات والأوبئة خاصة الطاعون (٤٥٦) .

واكد كوبان « بأن أجمل القرى التي يمكن أن يشاهدها الانسان توجد على ضفاف نيل مصر حيث يحمل لها النيل العلمى فتزداد التربة خصوبة » (٤٥٧) .

ولما كان مونكونى عالما فقد أجرى العديد من التجارب على مياه النيل وأرسل الى زملائه في باريس بمشاهداته وملاحظاته عن كثافة مياه النيل ، ومدى ارتفاعها في وقت الفيضان ، « واكد ان نهر النيل أقوى بكثير من نهر السين في فرنسا » وأعجب مونكونى « باعتماد المصريين على التقويم القمري » وذكر « أن الأقباط هم الذين يتولون عملية الحساب السنوى بالنسبة السنة القمرية وعدد الأشهر » (٤٥٨) .

Fermandel · Op. Cit., P. 29.

(٤٥٥)

Fermandel : Op. Cit., P. 59.

(٤٥٦)

Coppin : Op. Cit., P. 56.

(٤٥٧)

Monconys · Op. Cit., PP. 55 --- 5

(٤٥٨)

الخاتمة

يتضح لنا من العرض السابق أن اهتمام فرنسا بمصر جاء نتيجة اهتمامها بالشرق بصفة عامة ، خلال القرنين السادس عشر ، والسابع عشر وحرصها على التعرف على امبراطورياتها العظيمة خاصة الامبراطورية العثمانية والفارسية والصينية والهندية فالاهتمام بمصر انما هو جزء من الاهتمام الأكبر والأهم بالامبراطورية المهيمنة على مصر الا وهي الدولة العثمانية . فقد توثقت الصلات بين فرنسا والدولة في القرن السادس عشر خاصة خلال فترة الحروب الايطالية فكثرت السفارات والبعثات من فرنسا الى الدولة العثمانية وقد مر معظم أعضاء هذه البعثات ببلاد الشام لتأدية فريضة الحج كما حرصوا على المرور على مصر لزيارة أهم المزارات المسيحية فيها .

أما في القرن السابع عشر فقد تزايد الاهتمام بالشرق بسبب رغبة فرنسا في مد نشاطها التجاري الى هذه الجهات وقد تمثل

هذا الاهتمام أيضا في ترجمة القرآن الكريم وشراء المخطوطات وتكوين كوادرن من المترجمين وإرسال البعثات الدينية ، ولكن هذا الانفتاح الكبير على الشرق يقابله من جانب آخر توتر في العلاقات الفرنسية العثمانية .

هذا وقد جاءت كتابات الرحالة عن الشرق ومصر بعد انقطاع طويل عن هذه المناطق ولذلك نم تداول كتابات هؤلاء الرحالة من قصر الى قصر ومن كنيسة الى كنيسة واستقبل الفرنسيون هذه الكتابات بنسغف وحماس شديد .

ويلاحظ أن معظم رحالة القرن السادس عشر والسابع عشر كانوا من رجال الدين المسيحي مثل جريفان افاجار - فيلامون - كوبان - ولكن كان منهم أيضا السفراء والساسة مثل جان تينو وشسنو - دى بريف - وفرمنال ، ومنهم الطبيب والقيزبائي والجغرافي مثل بيلون ومونكوني وتيفيه ، ومنهم الأساتذة مثل تيفنو وقد اقتصر وصف هؤلاء الرحالة على مدن مصر السفلى وأهم المزارات المسيحية في وادى النطرون وسيناء ومصر القديمة والمطرية . . الخ ولم يحاول معظمهم التعمق في صعيد مصر اما لقصر الفترة التي قضوها في مصر أو لعدم معرفتهم ودرايتهم بمدن الوجه القبلى وخوفهم من التجول في مناطق مجهولة بالنسبة لهم كذلك كان لابد من حصولهم على اذن من السلطات المصرية لكي يتمكنوا من زيارة هذه الأماكن .

لقد قدم لنا الرحالة وصفا لطبقات المجتمع ولأهم الاحتفالات والأعياد كما قدموا وصفا تفصيليا للبيئة المصرية والحوانات والزواحف والطيور والنباتات حتى أن البعض منهم قد خصص فصولا بأكملها لوصف زرافة أو الحديث عن تمساح أو بعض

السحالى والعصافير ويلاحظ أن ما نلمسه من ايجاز شديد عند وصف الحياة الاجتماعية يقابله اسهاب فى وصف البيئة المصرية .

ونلمس من كتابات الرحالة كراهيتهم للآذراك لأنهم يمثلون الدولة العثمانية المسلمة ، ونلمس تعاطفهم مع المصريين « سكان البلاد الأصليين » على حد تعبيرهم وأيضا تعاطفهم مع المماليك حتى أنهم أبدوا أسفهم لوقوع مصر فى يد الدولة العثمانية بعد أن كانت دولة عظيمة فى عهد المماليك .

ونلاحظ فى كتابات الرحالة العديد من المبالغات ونجد أن البعض منهم نقل ملاحظات عن هيرودوت واستريون -- كذلك نلمس جهلهم وخطهم بالمذهب الأرثوذكسى فى مصر ، فخلطوا بينه وبين الديانة الاسلامية مثل قولهم « وصعد القسيس المسلم ليؤذن للصلاة » وتعجبهم لعدم « وجود أجراس فى المساجد » ، كذلك لا نلمس تعاطفهم مع الأقباط المصريين وذلك لأنهم مختلفون عنهم فى المذهب .

واذا كانت مصر العليا قد ظلت مجهولة بالنسبة لرحالة القرن السادس عشر والسابع عشر الا أن رحالة القرن الثامن عشر قد كشفوا عن هذا الغموض فخلال هذا القرن اندفعت زرنسا نحو الشرق بسبب رغبتها فى التوسع الاستعماري وأرسال البعثات الدينية ، ولا ننسى مجهود المستشرقين فى ترجمة المؤلفات العربية، فازداد نهم المعرفة للشرق . كذلك تصدى رجال الدين المسيحي للديانة الاسلامية فعقدوا المقارنات « بين ديانة مكة وديانة روما » على حد تعبيرهم بالاضافة الى اهتمام المفكرين بالديانة الاسلامية فغربق هاجمها وعلى رأسه فولتير وفريق آخر أبدى اعجابه بها

وعلى رأسه ديدرو وقد أدت كل هذه العوامل الى تكثيف الجهود للتعرف على الشرق واندفاع الرحالة الى مصر ، ولا ننسى تشجيع ملوك فرنسا لهؤلاء الرحالة خاصة لويس الخامس عشر .

وقد تنوعت وظائف رحالة القرن الثامن عشر فكان منهم الطبيب والعالم مثل بول لوكا ومنهم أعضاء بعثات دينية مثل الأب سيكار رئيس بعثة الجزويت ومنهم علماء آثار مثل الأب دورفال والراهب فورمان ومنهم العالم الطبيعى مثل سونينى كذلك يقابلنا اهتمام القناصل بالكتابة عن مصر وشراء المخطوطات مثل القنصل الفرنسى بينوا دى ميليه - ومن أهم المؤلفات التى وضعها الرحالة فى القرن الثامن عشر كتاب فولنى الذى يعد عملا متكاملا عن مصر كذلك كتاب أوليفيه الذى أوفد من قبل حكومة الادارة قبل الحملة الفرنسية مباشرة وبذلك نجد أن رحالة القرن الثامن عشر قد أفادوا من كتابات رحالة القرن السادس عشر والقرن السابع عشر وأضافوا عليها وكانت هذه الكتابات كلها هى التى اعتمد عليها علماء الحملة الفرنسية عندما أخرجوا مؤلفهم « وصف مصر » حتى أن دينون ذكر أنه « لولا كتابات هؤلاء الرحالة لما تمكنا من الكتابة عن مصر ودراستها الدراسة المستفيضة » .

أولا - المصادر والمراجع العربية :

- ١ - ابن اياس : محمد بن أحمد بن اياس الحنفى : بدائع
الدهور فى وقائع الدهور . حققها محمد مصطفى
٩٢٢ - ٩٢٨ هـ (١٥١٦ - ١٥٢٢ م) القاهرة ١٩٦٢ م
ج ٥ .
- ٢ - ابن زنبل الشيخ أحمد الرمال ٩٦٠ هـ : آخره المالك
تحقيق عبد المنعم عامر القاهرة ١٩٦٢ .
- ٣ - أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى تاريخ الصرب
الحديث . القاهرة ١٩٧٠ .
- ٤ - أحمد فؤاد متولى : الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته
من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له
القاهرة ١٩٧٦ .
- ٥ - أحمد الدمرداش : الدرة المصانة ، تحقيق د. عبد الرحيم
عبد الرحمن المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية .
القاهرة ١٩٨٩ .
- ٦ - الحسن بن محمد الوزان الزيائى : (ليو الافريقى) : وصف
افريقيا فى ١٣٩٩ هـ .
- ٧ - جاستون فييت : القاهرة مدينة الفن والتجارة . ترجمة
مصطفى العبادى . القاهرة ١٩٩٠ .

- ٨ - زينب راشد : تاريخ أوروبا الحديث . القاهرة ١٩٨٦ ج ١ .
- ٩ - سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام . القاهرة ١٩٦٩ .
- ١٠ - عبد الحميد البطريق ، عبد العزيز نوار : التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة الى أواخر القرن الثامن عشر . القاهرة ١٩٨٠ .
- ١١ - عبد الرحيم عبد الرحمن : المقاربة في مصر في العصر العثماني ١٥١٧ - ١٧٩٨ تونس ٨١٩٢ .
- ١٢ - عبد الرحيم عبد الرحمن : التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر القاهرة .
- ١٣ - عبد العزيز الشناوى : أوروبا في مطلع العصور الحديثة . القاهرة ١٩٧٧ .
- ١٤ - عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها . القاهرة ١٩٨٠ .
- ١٥ - على حسونه : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية . دمشق ١٩٨١ .
- ١٦ - محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤ - ١٩١٤ . القاهرة ١٩٨١ .
- ١٧ - محمد فريد بك المحامى : تاريخ الدولة العلية العثمانية . القاهرة ١٩١٢ .

ثانياً - المراجع الأجنبية :

1. Belon, Pierre De Mans : *Le voyage en Egypte 1547. Le Caire 1969.*
2. Carré, Jean Marie : *Voyageurs et écrivains Français en Egypte Le Caire 1922. Tome 1*
3. Chesnau, Jehan : *Voyages en Egypte 1549 .. 1552. Le Caire 1984.*
4. Clement, R : *Les Français d'Egypte aux XVII et XVIII siècles. Le Caire 1960.*
6. De Hammer, J. *L'empire Ottoman traduit de l'Allemand par J.J. Hellert Paris 1936. Tome 4 — 6*
7. Deschamps : *Histoire de la question coloniale en France Paris 1891.*
8. De Villamont : *Voyages en Egypte des années 1589 — 1590 — 1591. Le Caire 1971.*
9. Dyer, Thomes and Arthur Hassall : *Modern Europe 1595 — 1585 London 1901 Vol. II.*
10. Fermanel, Gilles : *Voyages en Egypte 1631 Le Caire 1975.*
11. Grant, A.J. : *A History of Europe 1494 — 1610. London 1954.*

12. Monconys, De Balthassar : *Les Voyages en Egypte 1646 — 1647*. Les Caire 1971.
13. Palerne, Jean : *Le Voyage en Egypte 1581*. Le Caire 1970.
14. Thenaud, Jean : *Le Voyage d'outremer (Egypte-Mont Sinay-Palestine)*. Paris 1884.
15. Thevenot : *Voyage de M.R. De Thevenot au Levant. Amsterdam Troisieme édition 1872*. Tome II.
16. Thevet, André : *Voyages en Egypte 1549 — 1552*. Le Caire 1984.

ENCYCLOPEDIAS

The new Cambridge Modern History 1498 — 1520.
Cambridge 1961 Vol. I

الفهرس

الصفحة

٥	تقديم
٧	المقدمة
	الفصل الأول : علاقة فرنسا بمصر والدولة العثمانية
٩	في القرنين السادس عشر والسابع عشر ..
٤٧	الفصل الثاني : تعريف الرحالة الفرنسيين ..
	الفصل الثالث : الحياة الاجتماعية في مصر كما صورها
٦٩	الرحالة الفرنسيين
٩٩	الفصل الرابع : المدن المصرية وثرواتها
١٣٥	الخاتمة

ضمائم في هذه السلسلة

- ١ - الأصول التاريخية لمسألة طابا - دراسة وثائقية .
د . يونان لبيب رزق .
- ٢ - مجمع اللغة العربية - دراسة تاريخية .
د . عبد المنعم الدسوقي الجميى .
- ٣ - التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين -
دراسة فى فكر الشيوخ محمد عبده .
د . زكريا سليمان بيومى .
- ٤ - الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية فى العصر الحديث
د . محمد كمال يحيى .
- ٥ - رؤية فى تحديث الفكر المصرى - « الشيخ حسن المرصفى
وكتابه رسالة الكلم الثمان مع النسخ الكامل للكتاب » .
د . أحمد زكريا الشلق .
- ٦ - صياغة التعليم المصرى الحديث - « دور القوى السياسية
والاجتماعية والفكرية ١٩٢٣ - ١٩٥٢ » .
د . سليمان نسيم .
- ٧ - دور مصر فى أفريقيا فى العصر الحديث .
د . شوقى عطا الله الجمل .
- ٨ - التطورات الاجتماعية فى الريف المصرى قبل ثورة ١٩١٩ .
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد .

- ٩ - المرأة المصرية والتغيرات الاجتماعية ١٩١٩ - ١٩٤٥
د . لطيفة محمد سالم
- ١٠ - الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادي بين مصر والسودان -
« دراسة فى العلاقات الاقتصادية المصرية السودانية ١٨٢١ -
١٨٤٨ » .
د . نسيم مقار
- ١١ - حول الفكرة العربية فى مصر - « دراسة فى تاريخ الفكر
السياسى المصرى المعاصر » .
د . فؤاد المرسى خاطر .
- ١٢ - صحافة الحزب الوطنى ١٩٠٧ - ١٩١٢ - « دراسة
تاريخية » .
د . يواقيم رزق مرقص .
- ١٣ - الجامعة الأهلية بين النشأة والتطور .
د . سامية حسن إبراهيم .
- ١٤ - العلاقات المصرية السودانية ١٩١٩ - ١٩٢٤ .
د . أحمد دياب .
- ١٥ - حركة الترجمة فى مصر فى القرن العشرين
أحمد عصام الدين .
- ١٦ - مصر وحركات التحرر الوطنى فى شمال أفريقيا .
د . عبد الله عبد الرازق إبراهيم .
- ١٧ - رؤية فى تحديث الفكر المصرى - « دراسة فى فكر أحمد
فتحي زغلول » .
د . أحمد زكريا الشلق .

- ١٨ - صناعة تاريخ مصر الحديث - « دراسة فى فكر عبد الرحمن
الرافعى »
د . حمادة محمود اسماعيل .
- ١٩ - الصحافة والحركة الوطنية المصرية ١٩٤٥ - ١٩٥٢ - من
ملفات الخارجية البريطانية
د . لطيفة محمد سالم .
- ٢٠ - الدبلوماسية المصرية وقضية فلسطين ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ -
د . عادل حسين غنيم .
- ٢١ - الجمعية الوطنية المصرية سنة ١٨٨٣ - « جمعية الانتقام »
د . زين العابدين شمس الدين نجم .
- ٢٢ - قضية الفلاح فى البرلمان المصرى ١٩٢٤ - ١٩٣٦ .
د . زكريا سليمان بيومى .
- ٢٣ - فصول فى تاريخ تحديث المدن فى مصر ١٨٢٠ - ١٩١٤ .
د . حلمى أحمد شلبى .
- ٢٤ - الأزهر ودوره السياسى والحضارى فى أفريقيا .
د . شوقى الجمل .
- ٢٥ - تطور النقل والمواصلات الداخلية فى مصر فى عهد الاحتلال
البريطانى ١٨٨٢ - ١٩١٤ .
د . فاطمة علم الدين .
- ٢٦ - جمعية مصر الفتاة ١٨٧٩ دراسة وثيقية .
د . على شلش .
- ٢٧ - السودان فى البرلمان المصرى - ١٩٢٤ - ١٩٢٦ .
د . يواقيم رزق مرقص .

- ٢٨ - عصر حكيان .
٢٩ - صغار ملاك الأراضي الزراعية في مديرية المنوفية . ١٨٩١ -
١٩١٣ .
٣٠ - حلمى أحمد شلبي
٣١ - المجاسن النيابية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني
٣٢ - دور الطلبة في ثورة ١٩١٩ ، ١٩٢٢ -
٣٣ - عاصم محروس عبد المطلب
٣٤ - الطليعة الوفدية والحركة الوطنية ١٩٤٥ - ١٩٥٢
٣٥ - د . اسماعيل محمد زين الدين
٣٦ - دور الاقاليم في تاريخ مصر السياسى
٣٧ - حمادة محمود اسماعيل
٣٨ - المعتدلون في السياسة المصرية
٣٩ - د . أحمد الشربيني السيد
٤٠ - اليهود في مصر
٤١ - نبيل عبد الحميد سيد أحمد

وبين يديك :

- مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس
عشر والسابع عشر
د . الهام محمد على ذهنى

رقم الايداع ٢٩٨٢/١٩٩١

الترقيم الدولي 9 — 2729 — 01 — 977 I.S.B.N.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

